الطبعة الثانية

عائشة البصري

ليالي الحرير

رواية

مكتبة نوميديا

مكتبة الدار العربية للكتاب

ليالي الحرير

عائشة البصري

ليالي الحرير: رواية /عائشة البصري.- ط2.-

القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتاب،2013.

184 ص؛20 سم.

تدمك:9789772937035

1- القصص العربية.

أ- العنوان 813

رقم الإيداع:2013/11325

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.

تليفون:23910250 202 +

فاكس:23909618 202 + - ص. ب2022

E-mail:info@almasriah.com

www. almasriah.com

الطبعة الأولى: جمادى الآخر1434 هـ- مايو2013م

الطبعة الثانية: شوال1434 هـ- أغسطس2013م

ليالي الحرير



عائشة البصري

مكتبة الدار العربية للكتاب

إلى أصدقائي الموتى

مع التحيات.

«شَفتاي على حَجَرِ الصلاة،

طوال حياتي قَبَّلْتُ الموت»

نِيلِّي ساشْ

أحيانا نعلِّق عواطفنا على مشجب قصي، وننسحب، مسافة عقد أو عقدين أو أكثر...

نتورط في حياة، بل في حيوات لا تُشبهنا. نكبر، نتخرج في الجامعة، نتزوج، نلد، نَنْتَخِب ونُنْتَخب. تصبح لنا بطاقة تعريف عليها صورة امرأة أنيقة وجادة. تَحْضننا صور عائلية: زوجات صالحات، أمهات حريصات، موظفات منضبطات ولا أحد يقرأ خلف الصور.

نُهادن الحياة مقابل بضع كلمات إطراء نسمعها بين الفينة والأخرى من الآباء أو الأزواج، أو نظرة فيها من الابتزاز أكثر مما فيها من الاحترام، لمجتمع لا همَّ له غير التنصت من خلال الشقوق.

تصدأ أرقام الهواتف في الذاكرة. رقم واحد يظل هناك في جيب المعطف الشتوي، أو بين الكتب القديمة.

تبتعد الوجوه وتبهت، ويظل هناك وجه واحد في زاوية من الذاكرة، ينتظر من سينفض عنه غبار الأيام.

فجأة، وكَمَن استيقظ من قيلولة، أو عاد من موت أخطأهُ، أو عَبَرَ من شارع إلى آخر، يستلمنا الخريف. يتساقط ذهب الأشجار على نافذة الروح.

ورقة هشة صفراء تُنبه القلب إلى نبضه. يتمطى القلب وينفض نعاس الخمول عن الذاكرة. يتدفق الدم إلى شرايينه المتيبسة. فنتذكر، هناك، في قاعة باردة، على مشجب قصي، عواطف معلقة تنتظر.

نهرع إلى المرآة، نُرتب ما بعثره الزمن على جبين متعب، نتحسس جانبنا الأيسر لنطمئن إلى أن القلب مازال هناك...

نُنادي الغياب من غيابه.

نُغَيِّرُ بدء القولِ، مِنْ «سَأَكونُ» إلى «كُنْتُ».

نتذكر كلاما لم نقله، فكرة لم تكتمل، جملة تحتاج توضيحا، عنوانا ملتبسا، كان من المفروض أن يكون مكان لقاء، تفصيلا صغيرا غَيَّرَ مجرى حياة. نتذكر حياة لم نعشها وحكاية لم نحكها.

- كان نومكِ مضطربا ليلة البارحة، هل عاودتكِ الكوابيس؟

غمغم صوت ناعس من تحت اللحاف.

- لا، فقط، كنتُ متوترة أمس وتناولت حبة منوم إضافية.

- أممم.. حاولت إيقاظكِ مرارا، ناديتكِ، كان نومك ثقيلا جدا. في النصف الأخير من الليل، غادرتِ السرير نحو الحمام دون أن تجيبي. غبتِ هناك طويلا... لم أسمع صوت انسياب الماء في المرحاض. انتظرتكِ حتى غلبني النوم.

لم أُجِبْ، قد يقلقُ لو عرفَ أنني عدتُ مرة أخرى إلى هناك.

خَفَتَ الصوت تدريجيا قبل أن يتحول إلى شخير خفيف.

تسللتْ قطعة ضوء شحيحة إلى الغرفة. تجرعت نصف قرص من الدواء، حصتي الصباحية التي تعوَّدت وضعها على «الكومودا» الجانبية حتى لا أنسى.

لا شيء يزعج صاحبي أكثر من تدفق الماء في الحنجرة.

هو نائم الآن.

عدتُ إلى الاستلقاء. تناهى إليَّ صوت ارتطام عجلات السيارات بإسفلت الشارع المبلل. بعد ساعتين من الآن ستستيقظ المدينة كذلك. تأملت السقف. تتبَّعت البقع الغامقة من أثر الرطوبة.

وراءنا بحر وأمامنا نهر.

أربعة أشهر مضت، وأنا على هذا السرير أحدق في السقف. مع الوقت تحولت هذه البقع إلى تشكيلات ورسومات تتحرك كفيلم بطيء بالأبيض والأسود. أكون فيه أنا السيناريست والمخرجة والشخصية الرئيسية. نعم، الشخصية الرئيسية، لا أرضى بأقل من هذا. رغم أنني في حياتي الواقعية كنت دائما كومبارس.

قصص تُسلِّيني وتملأ بياضات خلَّفتها أزمة قلبية حادة. البقع تتشكل أجسادا بأحجام مختلفة،

تُغير ملامحها بتغير مزاجي. أحيانا تتبدى لي خيولا تجري، أو نوارس تتراقص فوقي، أو لقالق ضخمة تفرد أجنحتها لتجثم على صدري. وأحيانا أخرى، أشجارا تتعرش وتُحدث شقوقا في السقف، فتتقاطر همسات الجيران الأكثر حميمية. تلتهب الغرفة ويصبح الحر لا يطاق.

في العادة، تمتد هذه التهيؤات حتى موعد الإفطار، بعد ساعتين من تناولي الدواء.

أعرفُ، اليوم لن أضطر إلى نسج تلك الحكايات الباهتة، وقد استنفدتُ احتياطيَّ من التخيل في حلم البارحة. فاستيقظت هذا الصباح منهكة، أرشح عرقا، مبللة الثياب وحتى الملاءة.

لم أستطع مغادرة السرير.

مرة أخرى رأيت نفس الحلم. حلم طويل وشاق، بمسافة عمر. حلم برائحة(*) اليود والمعقمات، وأدوية نسيت أسماءها. بمشاعر مضطربة، متحولة بين الحب والكراهية، بين الحزن والفرح. ورغبة جارفة بين الاستسلام والمقاومة.. مشاعر تتوالد خارج الزمن والمكان.

في السابق كنت أحلم كثيرا. وأحلامي تضيع مني كلها قبل أن أفتح عيني. بمجرد أن أستعيد نفسي في الواقع، أكون قد غادرت الحلم ونسيته.

لم أكن أعير أحلامي أهمية أو أهولها. كنت أعتبرها «لونا من النشاط النفسي يصدر عن النائم بحسب الظروف التي يكون عليها نومه»، رغم أنني أميل إلى تعريف شاعري، آخر، يرى «أن الحلم تتمة للحياة. حين تتوقف الحياة للحظات، يأتي الحلم ليملأ البياضات». لكن الأحلام، تبقى في النهاية، مشاتل نزرع فيها الأماني والرغبات، على أمل أن تتحقق.

كم سخرنا من الجدة -كما لو كانت تفتح علبة رسائل كل صباح- كانت تجلس في فناء البيت، تفك طلاسم أحلامها وأحلام الآخرين. تستقرِئ منها مستقبل وخبايا كل فرد من العائلة بل -ولِمَ لا؟- حتى مستقبل البلد والعالم. تفعل ذلك باعتقاد راسخ، بأنها رسائل تبعثها كائنات فوق بشرية؛ لتنذرنا بمصيبة أو تبشرنا بحدث سعيد. أعترف أنها أصابت في الكثير من الأحيان. فهي من تنبأت قبل أشهر قليلة، بولادتي، وبموت ملك البلاد، في السنة نفسها. استنادا لحلم رأته أمي:

(كانت تتمشى على شاطئ مهجور. فوق رأسها قرص شمس حارقة. طار سرب من النوارس البيضاء. وألقى عليها ظلا. من موج شديد الصفاء، خرجت صبية شقراء، ترتدي فستانا من

الساتان الفاقع الخضرة، لم يطله بلل الماء. في الأفق، وبين ملتقى الزرقتين، كان الملك – محمد الخامس حينذاك – على فرس أدهم يصارع الموج قبل أن تبتلعه الأعماق.)

نعم، حتى ولو كنت لحد الآن لا أجد تفسيرا لذلك. فالكثير من تنبؤات أحلام الجدة(**) تحققت، بشكل أو بآخر. خلافا لتلك العرافة الغبية التي كانت تزورنا على غير موعد، وتبدأ بتجَشُّؤٍ مقرف، قبل أن تسقط أرضا. تضرب بيديها وتركل برجليها؛ لتفسح المجال لجِنِّي يخترقها، طالبة التسليم وبخورا مكيًّا، ثم بصوت رجولي خشن، توزع تنبؤاتها على النسوة الحاضرات، وهن يلتقطنها ببلاهة ليسقطنها على حيواتهن. بعد زيارة العرافة، يكون للرجال النصيب الأكبر من المتاعب.

كانت الجدة، امرأة قوية وحيوية. لا تتردد في سلك كل الطرق؛ لتتحكم في جميع أفراد العائلة. رغم أنها ماتت منذ زمن طويل. ظلت حاضرة بيننا، نتحاكى نوادرها، ونستعيد مواقفها. ونكتشف أسرارها التي لا تنتهي. لم تكن باذخة الجمال، لكن هالة مغناطيسية كانت تلفها وتتبعها في كل مكان، هالة تَشَلُّ حركة كل من حولها. لا أحد يجرُؤُ على الكلام بحضورها، أو حتى التفكير في معارضتها. شخصية كهذه، من الطبيعي أن تثير غيرة نساء العائلة وحنقهنَّ، فكن ينممن خلف ظهرها، مدعيات أنها تستمد قدرتها على الشفاء، وتفسير الأحلام، والتأثير في كل مَجْمَعٍ دخلته، من حزامها المصنوع من حية ميتة، نوع من الحيات التي تُنوم طريدتها قبل أن تقتلها. إضافة إلى السحر التي تخبؤه في شريط الخرز الذي تحيط به رأسها كزينة.

إمعانا في تأكيد أنها مسكونة بأرواح شريرة، كانت النسوة يزعمن أنها حين تدخل مَجْمَعا تُتَمتم تعاويذَ باللغة الحسانية، لغة أهل الصحراء. كلما تكلمت، كانت الكلمات تغادر شفتيها وتنسج خيوطا رفيعة حول الحاضرين(***).

شخصيا، مازلت أصادفها بين حلم وآخر، جالسة تحت أغصان شجرة كاليبتوس، نفس الشجرة التي عَلِقَ بها قماطي وأنا رضيعة، حين سهت الأسرة عني وتدحرجت نحو النهر الذي كاد يجرفني إلى الهاوية. ما فتئت الجدة تذكرني بأنني أدين للشجر وللموتى،كذلك، بحياتي.

بعد أن أخذ مني المرض مأخذه شهورا، توقفت عن الحركة، وفقدت شهية الأكل، ويئس الأطباء من شفائي. ارتأتْ جدتي أن الروح التي بداخلي ليست لي، حيث إن إحدى الجنيات استغلَّت فرصة غياب أمي التي كانت تتركني وحدي ساعات عملها، واستبدلتني برضيعتها المريضة.ليس من عادة الجن سرقة الإناث – تؤكد الجدة- الصبية الذكور هم من يتعرضون لذلك فكانت الأمهات اللواتي يفقدن مواليدهن الذكور باستمرار يعلقن حَلَقا في أذن المولود للتمويه.

أمرت الجدة أن يأخذوني إلى ضريح وَلِيٍّ عُرِفَ بإشفاء الأطفال، وأن أُترك وحدي ساعة كاملة في حفرة جانب القبر. حين عادوا لاستعادتي، وجدوني أضحك وألوح بيدي وقد استعدت عافيتي. فسَّرت الجدة الأمر بأن الجنية أعادتني بتدخل من الوليِّ الصالح. أمي التي كانت ممرضة ولا تؤمن بالغيبيات، طالما سخرتْ من تأويل الجدة.

نادرا ما كررت حلما بعينه،إذا استثنيت الحلم الذي لازمني منذ الطفولة:

(أحلم أنني أطير، أحلق في رحابة السماء بلا جناحين. أطل من فوق على عالم لا يراني.)

حلم عادي، يراه معظم الأطفال، هذا ما اعتقدت. كان عليَّ أن أسأل ابني من قبل، أقصد حين كان هنا، صغيرا. أما ابنتي فلم تكن تحلم أو ربما كانت تنسى أحلامها، فكثيرا ما كانت تلح عليَّ بالسؤال: ماما، إلى أين نذهب حين ننام؟

كم مرة فتحت مزلاج الحلم ودخلت هذا البيت؟ لا أدري، أذكر، فقط، أول مرة حلمته كان بداية ربيع. وكنت في السادسة عشر، وشجر الليمون في حديقتنا قد أزهر.

مسافة زمن تكفي أن ينسى الإنسان حتى اسمه.

بدأ الحلم قصاصات متفرقة، مشاهد مفككة ومتناقضة، تتطلب جهدا كبيرا لترتيبها ومنطقتها. قبل أن يصير، مع السنوات، حلما مكتمل الصور والمشاهد. يتكرر ويظل راسخا في الذاكرة بكل تفاصيله، مع اختلافات بسيطة.

بعد ميْتَتَيْن، تشابك عالم الحلم بعالم آخر مجهول، فَتاهَ العقل بينهما.

طيلة الحلم، يظل جزء من وعيي يعي أنني أحلم. فأرغب، بشدة، في العودة إلى حياتي الأولى التي أحن فيها إلى حياتي الثانية. وهكذا دواليك. الحنين قائم. لكن عواطفي تظل بدون انتماء إلى أي منهما.

[... شعري مبلل. منامتي كذلك. أرتجف من البرد. أنفض عني رذاذ الماء، فيسَّاقط زهر منامتي. أجول ببصري.

عتمة.

دقائق بطول الساعات قبل أن أعتاد الظلمة. ظلمة زرقاء، كالتي تُعتمد في المشاهد السينمائية الليلية. نافذة فوق رأسي. من بين فجوات الزجاج المكسور يتسلل قمر مكتمل، محدثا بقعا ضوئية على الأرض والجدران. بصعوبة أستطيع أن أُكَيِّفَ بصري مع الإضاءة الخفيفة وأتبين حدود المكان.

تكتمل الصورة. حجرة صغيرة ضيقة. سقف منخفض ومنحرف قليلا. رائحة رطوبة قوية. خرداوات متناثرة هنا وهناك. إذا لم أخطئ، فالمكان علية بيت.

ركزت سمعي لالتقاط صوت ما. لا أسمع شيئا. صمت عميق، إلا من دقات قلبي تتردد قوية، كأن صدري مكبر صوت.

خوف. ذعر.

حاولت أن أخطو فتعثرت في بقايا لعب مكسورة وكرسي مخلوع. عدَّلت الكرسي وصعدته. بارتباك، فتحت النافذة، مددت عنقي إلى الخارج. أدركت أن العلية تقع في الطابق الثاني من بيت كبير. سطح مزين بقرميد أحمر. انعكاس القمر على سطح الماء، يحيل النظر إلى مسبح يتوسط ردهة البيت الواسعة. الجو حار وملتهب.

لابد أن يكون لهذا البيت موقع في شارع ما، من حي ما، في بلدة ما، وزمن ما.

هَدْأة الشوارع، وغياب حركة المرور، وصوت طائرات تُحلِّق على علوٍّ منخفض، يدل على أن الحي يقع قرب مطار على أطراف مدينة. كل المساكن المحيطة فيلات أو بيوت واطئة. حي من تلك الأحياء القصيَّة الراقية، حيث يسكن غالبا أناس يهربون من ضجيج المدينة ومن عيون الفقراء الفضولية.

من بعيد، خط طويل لأضواء سيارات قادمة في هذا الاتجاه. تكاثُف الضوء يوحي بأنها تعبر طريقا ضيقا أو جسرا. على علو بادٍ من مستوى البيت، وبتوازٍ مع خط السيارات، أبنية متراصة وأعمدة شوارع تعكس ضوءها على سطح مائي. ربما تقع البلدة بين مجريين أو عند ملتقى نهر وبحر. رائحة البحر القوية. رطوبة الهواء المرتفعة ترجح ذلك.

على بعد كيلومتر، نيون ينطفئ تارة ثم يشتعل. حبيبات ضوء زرقاء وحمراء تتناثر أمام عيني، ثم

تتجمع مشكِّلة كلمة إسبانية: لَطَبيرْناLa Taberna، اسم يطلق عادة على مشرب أو مطعم أو علبة ليل.

كل ما تبقى من الفضاء المحيط يسبح في العتمة.

لسعة برد. عليَّ أن أتدفأ، أن أجفف شعري على الأقل. نزلت عن الكرسي.

ثم... ما الذي أفعله أنا هنا؟ كيف وصلت؟ باب العلية مغلق. وما هذا البلل والجو صحو في الخارج؟

جسدي خفيف، غريب عني، أتحسسه فلا أجدني. أحد ما يسير مكاني، يمشي برجلي. وعيي هو الوحيد ما يدل عليَّ، أو على الأقل جزء منه. لكن هل لي أن أثق بوعي بلا جسد؟

تسربت إليَّ الشكوك وأنا أستعيد حوارا، الأرجح أنه كان مع طبيب:

- رجاءً، لا تتخلي عن دواء ديروكساتDeroxat ولمدة سنة على الأقل. لا تستهيني بوضعك النفسي. حين يتوقف القلب والتنفس في نفس الوقت -ولو لثوانٍ- يفقد المخ ثقته في القلب، فيلازمه الخوف من أن يخونه ويتخلى عنه مرة أخرى، والعكس كذلك. عدم الثقة المتبادلة هذه، تتعب نفسية المريض أكثر مما يتعبه تخثر الدم..

أردت أن أسأله، مُمَازِحة، وإذا كانت الخيانة متبادلة؟ قبل أن أتمكن من صياغة السؤال، بادرني بلهجة صارمة:

- أنبهك لثالث مرة.. إذا لم تتبعي وصفتي. ابحثي عن طبيب آخر تثقين فيه، ما دمنا نتحدث عن الثقة.

الآن، فقط، أدركت أن للأعضاء علاقة متشابكة ومعقدة. ولا تكتمل وظائفها إلا مجتمعة.

سحبت يقيني بوعيي الآني. التفت حولي على أمل أن أجد دليلا يثبت وجودا منطقيا للبيت ولي.

كلمحة ضوء في هذه العتمة، تذكرت كيف نسيتُ أهم حدث في حياتي؟

توقف القلب مرتين. إذًا، فأنا عشت ثلاث حيوات. الأولى دامت خمسين سنة وستة أشهر، والثانية ثلاثة أيام. والثالثة؟ هل تكون هذه هي الحياة الثالثة؟ وما يبرر لي أن وجودي في هذا البيت حياة وليس موتا.

أووفْ! تعبتُ، سأجن.

رغم الخدر وثقل الأطراف، ما زلت أحتفظ بقوة حاسة البصر. في الجانب الآخر كانت ذاكرتي بصرية. اعتمادي الأول على تقييم الأشياء والأشخاص. لا أنسى وجها رأيته ولا مشهدا أو صورة. أنسى الأسماء والأرقام. أنسى رواية قرأتها، اسم المؤلف، لكنني لا أنسى الغلاف. تأتي حاسة الشم في المرتبة الثانية. ثم ما يشبه حاسة سادسة، ورثتها هي وتخثر الدم عن والدي الذي ورثها بدوره عن الجدة وكانت سبب كل مصائب حياته.

والدي كان يزعم أنه يستطيع أن يكلم شخصا على بعد مسافات، دون أن يفتح فمه. أو أن يكشف مجرى ماء أو هواء في باطن الأرض برَجَّةٍ من جسده.

اللحظة، كل الحواس الأخرى شبه ملغاة.

من نظرة واحدة للأشياء والخردوات المتناثرة حولي في هذه العلية أستطيع أن أقرأ تاريخ البيت وسكانه. دراجة حمراء صغيرة بعجلات ثلاث. طائرة ورقية. حصان نحت بعناية من خشب شجر الليمون. عربة أطفال بلا عجلات. دُمى مفككة الأطراف. ليست هناك دمية متكاملة، حتى المصنوعة من الخزف نُشرت أذرعها عن عمد. أطفال عاشوا في هذا البيت. واحد منهم على الأقل كان غير سوي.

صغيرة كنت، كلما عنفتني أمي، أو انزعجت، أو كان لي طلب ما، ألوذ بعلية البيت، معتقدة أنها المكان الأقرب إلى الله. عليات البيوت، هوامش لحياة عائلة بأكملها.

يحلو لي أن أشبه سلة مهملات الكاتب بعلية بيت. هي حقيقة الكاتب، عالمه بلا تزويق: بقايا نصوص معطوبة، رسائل لم تكتمل. قصائد قبل التشذيب.

بلذة أعرفها، استمرت يدي في نبش المحتويات وتفحصها تحت ضوء القمر. مايوه سباحة نسائي، رأيت مثله في الأفلام بالأبيض والأسود، شبيه بفستان قصير مما ترتديه الفتيات اليوم في الشارع.

رقعة شطرنج تنقصها أغلب البيادق. منضدة خشبية عليها مشغِّل أقراص وعلبة بلاستيكية بها شرائح صور، لا يبدو أنها مازالت صالحة للعرض.

ثم حذاء أسود لامع، بكعب عال وحاد. موضة الستينيات.

ابتسمت للذكرى.

في الحلم، وحدها الذاكرة تظل يقظة، تروح وتجيء، تستعيد أحداث الواقع وتسجل أحداث الحلم.

كان أول حذاء أغواني بانتعاله، الحذاء الأسود اللامع، ذو الكعب العالي، المركون في زاوية من دولاب أمي. كلما رأيتها تُلمعه بعناية، أعرف أن حفلا ما قادم (زفاف، ختان أو عقيقة). لم تكن نساء العائلة، ولا حتى نساء الحي، يحظين بمثله في مدينة صغيرة وهامشية كمدينتنا. اقتنته والدتي من مدينة فاس، التي كانت رمزا للرقي والأناقة حينذاك.

كنت في السادسة من عمري، حين تجرأت وفتحت الخزانة السرية، احتضنت الحذاء ولمست لمعانه بافتتان، ثم دسست قدميَّ الصغيرتين في نعومة جلده. ما كدت أخطو خطوة واحدة حتى فقدت توازني وسقطت على حافة السرير؛ لأصاب برضوض أعلنتْ لأمي عن تجاوز غير مسموح به بتاتا في البيت. عنفتني بشدة حتى بكيت. لكن، بعد أن هدأتُ، تساءلت عما يغري أمي بهذا الارتفاع المحفوف بالمخاطر؟ لولا ذلك اللمعان المغري لكان قطعة جلد عادية، بل متعبة وغريبة الرائحة. الطريف هو أن رأس أخي - الذي أصبح الآن في الأربعين- مازال يحتفظ بأثر ذلك الحذاء الأسود. أثناء شجار على لعبة تافهة، لم يجد أخي الصغير غير الكعب الحاد لتصفية حساباته الصغيرة، وليظل الجرح الغائر دليلا على صلابة كعب الحذاء وجودة صناعته. بعد أن فقد الحذاء هيبته وقدسيته، بتغيير الموضة إلى أحذية بكعوب أكثر سمكا، وأقل علوا، انتقل الحذاء إلى علية البيت؛ ليباع بعدها ضمن الخردوات.

قرب الباب، وعلى اليمين، مصباح يدوي معلق بطريقة تجعله في متناول اليد. ضغطت بعشوائية على زر، فانتشر الضوء في كامل الغرفة الصغيرة. يبدو أنه للاستعمال في الأماكن الواسعة كالغابات والصحارى. اختفت الظلال. دفء وألفة ملآ المكان. ميزت آلات كهربائية منزلية مفككة. قنينات بلاستيكية فارغة، عليها اسم دواء ضد طفيليات الكلاب. واقيات مطر. بزازات زجاجية. ستائر ممزقة. ملابس بالية لأطفال وطفلات، لنساء ولرجال بمقاييس وأشكال مختلفة.

في ركن قصي. كرسي متحرك صدئ المقابض. في الركن المقابل له، كرسي هزاز قديم جدا، من قصب الروطان الطبيعي، صناعة يدوية. رغم تآكل مسنديه، ما زال صالحا للاستعمال لسنوات أخرى. مسحتُ عنه الغبار بخرقة أو ما تبقى من ستار، وجلستُ في استرخاء كامل، رأسي إلى الوراء. البرد والرائحة المكثفة للعفونة أنهكاني. أغمضت عيني.

فجأة، اهتز الكرسي بعنف كدت أسقط معه أرضا. بسرعة وقفت. اصطدم رأسي بسقف العلية. فقدت توازني فاستندت إلى الجدار البارد.

انقباض، يد تعصر قلبي، اختناق في الصدر، غثيان ورغبة في الهروب من هذا المكان...

خطر قادم.

عليَّ أن أستيقظ الآن.

صوتي يتردد داخلي: ماء، أريد أن أخرج، أن أعود، أن أحيا، أن أستيقظ....

تتدحرج الذاكرة إلى الوراء، إلى هاوية فراغ سحيق، حيث تتداخل الصور وتتشابك الأحاسيس، وتلتبس المشاعر:

(- ماذا حدث؟(****)

هبوط حاد في الضغط.

- كيف حدث؟

- لا أعرف، كانت نائمة، ثم صرختْ.

جلبة في الممر.

طوارئ في السرير رقم واحد.

زحمة في الغرفة، أصوات بعيدة تتقاطع. بدل بيضاء تحيط بالسرير.

- كان وضعها مستقرا هذا الصباح، ماذا حدث؟ هل تحركت؟

- لا أدري دكتور.

طقطقة.

يد تضغط على الضلوع بعنف.

- ما اسمها؟

صفعة على الخد.

- رجاء مدام لا تنامي.

صفعة أخرى.

- هل ماتت؟

- صعقة كهربائية أولى.

- اشحن، واحدة أخرى، إنها تذهب.

- صعقة ثانية.

صوت ارتطام آلة باردة باللحم الطري.

- صعقة ثالثة.

شهقة، ثم استؤنف نبض الآلة.)

خفة جسدي غير العادية، حالت دون تثبيت رجليَّ في الأرض.

يجب أن أصل إلى حمَّام. لابد أن يكون لهذا البيت الكبير أكثر من حمام وحنفية. رشة ماء قوية على وجهي، أستيقظ وينتهي الكابوس. استجمعت قواي، انتصبت. كل هذا ولم أتخلَّ عن حذري. فتحت الباب. نزلت الأدراج. هي خمسة أدراج بالتمام.

شموع تراقصت أمام عيني، منذ أيام فقط أقفلت عِقدي الخامس.

ثم، ردهة مستطيلة...

تجمدت في مكاني.

رنين هاتف قوي اخترق الصمت. تشظت أفكاري. بعد أكثر من أربع رنات، صوت ناعس ومحشرج. صوت رجل:

أيقظتني، تعرفين أنني آخذ المنوم في الساعة العاشرة، وأنام مباشرة.

صمت.

- لا بأس، سأكون الساعة الحادية عشرة في المطار.

- (......)

-طبعا عليَّ إلغاء مواعيد الصباح... أنتِ هكذا دائما، تحددين المواعيد على حسب برنامجكِ، وتنسين دائما أنني طبيب ولي مرضاي.

- (......)

وبحدة:

- قلت لكِ سأكون بانتظارك، رغم أنني لم أعد أعرف كيف أساير مزاجيتكِ. تقررين وحدك. أو تعتذرين في آخر لحظة.

صوت ارتطام السماعة بعنف.

ثم صمت.

قشعريرة، معقول؟

كما لو أنني سمعت هذا الصوت من قبل، صوت بعيد، لكنه ليس غريبا عليَّ، صوت حاد ومشحون بالتسلط. وهذه اللكنة الفرنسية مع تفخيم الراء، كما ينطقها الإسبان، لا تُنسى.

متى سمعت ذلك؟ وأين؟

كرد الصدى استعدت حوارا:

(- عفوا سيدتي، هل تعرفين العربية؟

سأل المسافر المجاور لي في الطائرة الليلية، باريس-عمان. وهو ينقل بصره بين وجهي والكتاب الذي بين يدي.

- نعم. بتذمر أجبتُ.

مد إليَّ الرجل ورقة عليها عنوان فندق.

- هل لديك فكرة عن موقعه، في الوسط، أم في أطراف المدينة؟

تطلعت إلى الورقة. الإنارة ضعيفة. حركت رأسي نافية. لذة القراءة ورغبة العودة إلى «أشجار الشتاء» لسيلفيا بلاث لم تدع مجالا لأسئلة أخرى، أو حتى لتبين ملامح الرجل المتسائل.

كمن يكلم المرأة المرافقة له، الجالسة يساره:

- حتما سيزايد علينا أصحاب التاكسيات بما أننا أغراب. المؤسف، حقا، أن لا أحد في الانتظار. كنا سنقتصد المبلغ، أو على الأقل نعرف كم، ونقتصد الباقي.

استمر تساؤله المثرثر حتى نزول الطائرة.

في انتظار الحقائب، سألني نفس الصوت:

- أتعتقدين أن التسعيرة محددة بين المطار والمدينة؟

ثم أشار إلى الشخص الذي كان في استقبالي.

- هل من الممكن أن تسأليه؟

ضجرة من إلحاحه وبخله، تطلعت إليه، متجاهلة مرافقته الصامتة، التقطت تفصيلا بارزا في الوجه. ندبة واسعة، هلالية الشكل أيسر الجبين.

أكره البخلاء والمقترين.

بلؤم أجبت:

- لا، إنه ليس من عمان. وهرولت.)

كما لو أن معرفتي بالصوت طمأنتني، وأَلَّفَتْ بيني وبين المكان، وأعطت مشروعية لوجودي في هذا البيت. تجاوزت الردهة. كل الأبواب مشرعة. دخلت أقرب غرفة على يميني. ضيقة كخزانة معتمة. من رائحة الكافور والثياب المعلقة في صفوف، عرفت أنها لامرأة، وأن الغرفة دْرِيسينْجْ لحفظ الثياب. توجد في الدور الكبيرة. في الشتاء يحتفظ فيها بثياب الصيف، وفي الصيف تُركن فيها ثياب الشتاء. فقط لو كان بإمكاني أن أستعير كنزة صوف، فما زال البرد ينبع من داخلي كقطعة ثلج كبيرة في البطن، توزع صقيعها على الأطراف، فتزرق العروق وترسم خرائط على جلدي الباهت. لا أذكر أين قرأت أن البرد يأتي من اللون الأزرق.

غادرت على الفور.

دائما على اليمين. غرفة واسعة، بنافذة واحدة، تطل على الباحة والمسبح. سرير لشخص واحد، تحته صف من الأحذية أغلبها للرياضة والتزلج. منضدة خشبية بكرسي لاصق وثقب دائري في الوسط بداخله محبرة. نفس الشكل الذي درست عليه في بلدتي أواخر الستينيات. رف صغير عليه بعض مجلات السْيَانْسْ فِيكْسيونْ، وثلاث كؤوس فضية. صور هنا وهناك لشاب نحيل بين السادسة والثامنة عشر. بجلد باهت وتفاحة آدم البارزة: على قمم جبال ثلجية يستعد للقفز،

راكبا دراجة نارية يردف خلفه فتاة، فوق منصة ببِذلة تزلُّج يتسلم كأسا فضية، بين جموع متظاهرين يحمل لافتة ضد الحرب في الفيتنام.

خزانة جدارية تحتوي على تشكيلة من الملابس الشتوية، أغلبها ملابس وبذل للتزلج. كماشة بيزبول. لعب إليكترونية متجاوزة. الجدران مغطاة تقريبا بملصقات وصور لمغنين ومغنيات، عرفت منها فرقة البيتْلِزْ. وصورة بحجم الجدار لبُوبْ مارْلي. ملصق من الثوب الأحمر يتوسطه تطريز بالأسود لتشي غيفارا.

ورقة مثبتة بلاصق على أعلى رف، تحمل رسما لقلب باللون الأحمر وإهداء صغير: «إلى بول مع الحب».

الغرفة الوردية المواجهة، كانت أقل مساحة. كل شيء وردي. طلاء الجدران، غطاء السرير، المنضدة، الكرسي. وستار النافذة الوحيدة المطلة على الجهة الأخرى للبيت. المصراعان مفتوحان فاسحان المجال لأغصان شجرة كرز ياباني عارية الأغصان. فقط زجاج النافذة المغلق، يفسح المجال لضوء القمر، وبإطلالة على حديقة خلفية.

على المنضدة، كراسات قديمة بجداول الضرب على الغلاف الأخير. فوق الرف الوحيد، كتب مدرسية، روايات من سلسلة (أزير- أَرْلُوكَانْ)، وصورة واحدة لطفلة في حدود الرابعة عشر، بفستان أبيض وشرائط وردية، تعزف الكمان على خشبة مسرح.

كومودا بثلاثة أدراج، صُفَّت فوقها دُمى يدوية من الثوب والقش. عرائس بثيابها التقليدية. تبدو هدايا اقتُنيت من دول مختلفة: مكسيكية، صينية، هندية، عربية... ودبابيس وشرائط للشعر بمختلف الألوان.

على الرف، وبعناية، وضع كمان صغير.

بنفس الشكل ونفس الأثاث تقريبا، توجد غرفة جانبية بلون أزرق سماوي. مع اختلاف صغير في اللُّعَب: دببة، كلاب، أرانب من الصوف الناعم، مجمعة في قفة كبيرة من قصب الخيزران. ألعاب البوزل. أقلام ملونة. صف من الأحذية الصغيرة بينها حذاء تزلج بعجلات. وصور بإطارات قصبية لطفلة فمها خال من الأسنان الأمامية، وهي تضحك بين ذراعي بابا نويل. على الكومودا الجانبية،كرة زجاجية بداخلها مجسم لبابا نويل محملا بالهدايا في يد، وفي اليد الأخرى مكنسة

قش. لمستها فتناثرت نُتف الثلج -كما لو أنني ابتسمتُ- أعرف هذه اللعبة.

من كراسات الدراسة، عرفت الأسماء: صاحبة الغرفة الوردية اسمها نيكول. وصاحبة الغرفة الزرقاء إيلين وهي الصغرى.

كل الغرف وحتى الحمَّامات الملحقة مرتبة بشكل جيد. لولا طبقة الغبار السميكة، لبدت غرفا عادية غادرها الأولاد للتو.

هذا ما قلته لنفسي في الحلم.

بين الفينة والأخرى، يتردد سعال تَرُدُّ الجدران صداه القوي، وصوت انسياب الماء في المرحاض، وطقطقة آلة كاتبة. نباح كلب في الحديقة.

كم مضى عليَّ من الوقت وأنا هنا؟ كم الساعة الآن؟ هل اقترب الفجر؟

تغلب الفضول على الخوف، فقادني إلى منفذ صغير، ككوة في جدار، نازلة ثلاث درجات على مستوى البلاط. لأجدني داخل غرفة أخرى أكبر وأوسع أو شبه شرفة واسعة. الجدران الثلاثة تغطيها رفوف حديدية، مكدسة بالكتب حتى السقف. الجهة الرابعة، فاصل قصير من الخشب المخرم يطل مباشرة على صالون. إضافة لم أجد لها مبررا. فالبيت واسع جدا لا يحتاج كل هذا التحايل لربح غرفة مقحمة في الديكور العام.

استغربت، عادة ما تكون مكتبات البيوت في مكان مغلق، هادئ، بعيد عن الحركة. وليست شرفة معلقة فوق صالون، فللمكتبات نفس حميمية غرف النوم.

في الوسط، مكتب واسع من خشب العرعار، كل أدراجه مغلقة بإحكام، درج واحد فقط، خُلع بعنف. الغبار يغطي أدوات مكتبية باهتة وقديمة. مقلمة من نفس الخشب، خراطيش حبر فارغة. أقلام رصاص. دبابيس تثبيت الورق. مشابك بلاستيكية. آلة تسجيل. آلة كاتبة تفتقد عددا من أحرفها اللاتينية. أرومات بطاقات سفر. مناديل ورق مستعملة. مرمدة فاضت بأعقاب السجائر. نثار رماد. جمجمة بشرية على سطحها خطوط وعلامات بالحبر. مجسم برونزي لرأس سيجموند فرويد. سماعة طبية. كناش من ورق البردي مخيط يدويا، يبدو أنه قطعة نادرة من صنع مصري، ثم حزمة من الوصفات الطبية المصفرة والمتآكلة، تحمل اسم «خوان رودْريغو

أُميًّا»(*****). طبيب الأمراض العقلية. خريج جامعة مونبولي.

فوق المنضدة، رسم غير مكتمل أو كروكي بقلم الرصاص لامرأة عارية، نحيفة جدا، مع تأكيد واضح على الترقوتين الغائرتين تحت العنق، باحترافية عالية.

شعرت برغبة قوية في العطس، كتمتها. أكيد أن العثة غزت هذا العدد الكبير من الكتب المصفرة.

من كشف أوَّلي لكعوب الكتب، يبدو أن المكتبة، ذات المحتويات المتناقضة، قد جمعها أشخاص مختلفون، ولأكثر من جيل: صف من المعاجم تتوزع بين الفرنسية، اللاتينية القديمة، الإسبانية، العربية، العبرية، الفارسية والألمانية. كوكتيل من اللغات الحية والميتة. كتب طبية، يرجع بعضها للفترة الذهبية العربية بالأندلس، وأخرى حديثة. معاجم طبية. جانب من المكتبة خصص فقط لكتب علم النفس. أغلبها لسيجموند فرويد: كتاب «تفسير الأحلام»، كتاب «مقدمة في التحليل النفسي». كتب لبعض تلاميذه ككارل يونغ الذي انقلب عليه فيما بعد، وكتب أخرى عديدة لعلماء نفس معاصرين.

الرف السفلي، روايات بوليسية من السلسلة البوليسية الفرنسية المشهورة (سِيرِي نْوَارْ)، أغلب تواريخها يعود إلى الستينيات من القرن الماضي. أعداد كبيرة من المجلة العلمية (سْيَانْسْ-إفي)، بنفس تواريخ الإصدار ونفس المواظبة....

أحسست بلهاث ورائي. أحد ما يراقبني. تجمدت. بحذر التفتُّ. عينان تلمعان في الظلمة.

هناك مشاعر وأحاسيس سابقة، لا تفارقنا حتى ونحن نيام نحلم، منها الخوف المستمر من مراقبة الآخرين. إحساس الخوف القوي، أيقظ الجزء الواعي، فقلت لنفسي مهدِّئة: لا تخافي، إنه مجرد حلم. لستِ أنتِ. إنها أخرى، مَن كانت في العلية، ونزلتْ السلالم، وجالتْ بين الغرف، ودخلت هذه المكتبة. المشهد الآني لا يخصكِ. احذري أن تدخلي المشهد ولو بالمشاعر. قد تضيعين. ويصعب عليك العودة.

سلطتُ ضوء المصباح اليدوي في اتجاه العينين. كلب، بل كلبة سوداء، مقعية بهدوء وسكينة. كم من الوقت ظلت بجانبي؟ ولماذا لم تنبح حين رأتني؟ هل هي عمياء؟ لكن عينيها تتبعان حركاتي أينما اتجهتُ. هل تَعْرِفُني؟ ربما ليست حقيقة. ربما أنا التي لستُ حقيقة بالنسبة لها. لا يمكن أن أحلم أو أتخيل كلبا. فأنا لا أتحمل حتى الاقتراب من الكلاب، منذ حادثة وقعت في الصغر. أحب

القطط أكثر.

والدي كان مولعا باقتناء الكلاب، بتاريخها وأنواعها. يستطيع أن يعرف فصيلتها من النظرة الأولى. آخر ما اقتنى، كلبة صيد من فصيلة اليوكي. تنام في القبو شتاء وبجانب البئر صيفا. لكنها كانت تتسلل كل ليلة من باب المرآب القصديري، محدثة ضجة كبيرة. ثم تعود متبوعة بكلاب ضالة. ويستمر السمر بكل ما يتخلله من نباح متبادل بين الكلاب المتنافسة على الكلبة الوحيدة. والدي الذي كان يرى أنها من فصيلة راقية وليس عليها الاختلاط بالكلاب المشردة، ربطها إلى سياج الحديقة. فكان أنينها الاحتجاجي يوقظ كل من في البيت وكذلك الجيران.

ضجرنا.

استعادتْ حريتها، ليكتشف والدي، ذات صباح، أن كلبته المصون حامل. لكن جرحا غائرا في الرأس لن يمهلها حتى تضع جراءها. كانت تتألم مطلقة أنَّاتٍ شبيهة بأنين البشر. أخذ والدي بندقية الصيد. مسد شعرها مهدئا، فأسبلت عينيها باستسلام. صوب بندقيته، أفرغ رصاصة في رأسها. ماتت الكلبة، دون أن يبدر منها أي احتجاج. مشهد ظل عالقا في ذاكرتي، وأسئلة طفلة صغيرة: هل قتل أبي الكلبة عقابا على تمردها، أم شفقة عليها؟

وقفت الكلبة طويلا، تنتظر حركة تالية مني. حكَّت قائمتها، تشمَّمت البلاط، حتى وصلت عند قدمي، قبل أن تتجه نحو الدرج النازل. تبعتها وهي تتسلل من باب موارب لغرفة شبه مضاءة بمصباح خافت على رأس سرير.

رجل نائم. يضع كمامة أوكسجين على أنفه. يتقلب باستمرار، كشخص محكوم بلعنة ما، ولم يجد راحة لروحه.

يحضن الوسادة تارة، يبعدها، يضعها على رأسه تارة أخرى، يغمغم بكلمات متفرقة. ثم يبدأ بالصراخ مستنجدا بخليط من الفرنسية والعربية:

- يامَّا! يامَّا!أُوسُكورْ! يلعن دين باباكُم.... ليسي مْوا.

يضرب بيديه في الخواء، يركل برجليه، يشد سروال المنامة إلى فوق، ينثني على نفسه، يلصق فخذيه بجذعه، ثم بالإسبانية:

- سُكُورُّو!مَادْري! مادْري! ديخامي...

يلتصق بالفراش حاميا مؤخرته، قاذفا برجليه ظلا أو ظلالا مُغْتَصِبَةً.

يستمر الصراخ والصراع عدة ثوانٍ. يهدأ. يعدل كمامة الأوكسجين على أنفه.

نصف نائم، وعينان نصف مغلقتين. تأملته من بعيد.

شخصية كهذه، في بيت كهذا، ما الاسم الذي يلائمها؟ حسب قدراتي اللغوية، جربت أسماء عربية أولها محمد، ثم أخرى إسبانية كأُنْطونْيو، ثم أسماء فرنسية كدانْييل.....

يتململ الرجل قليلا في اتجاه الباب، بصوت هادئ خالٍ من الدهشة أو الاستغراب، يخاطب ظلا ما:

- ماذا تفعلين هنا؟ ألم تنامي بعد؟

عاد المشهد كما كان، رجل وحيد، محكوم بلعنة ما، يحضن كوابيسه وينام....]

جرس الباب يرن. أستجمع شتات عظامي وقواي الخائرة. أقوم لأفتح باب الشقة. الثامنة صباحا. موعد المنظفة.

ممر دُو فْلُورِيس

«أيتها السفينةُ البِلا بَحَّارة،

حين تغربُ الشمس إلى أين تأخُذينني؟»

يانيس ريتسوس

كان الجو حارا وثقيلا، زوال يوم الثاني عشر من شهر يوليو، لحظة وصولي إلى مطار أُورْلي. طقس لم أعتده في باريس، فأغلب زياراتي لهذه المدينة كانت إما في الشتاء أو الربيع..

آهٍ باريس! لم أتعرف ملامحها المشمسة، كأنني لم أكنها ولم تكنّي. كأننا لم نكن عاشقين، ولا مطرها كان بلسما لجروحي. لو أمطرت قليلا لتذكرت. لم أعهد لها حضنا غير الماء، ولا دثارا غير الضباب. حرها الثقيل يخنق الذكريات.

كتبت شيئا عن سحر هذه المدينة. كتب عنها الكثيرون. حاولوا إغواءها لامتلاكها، لكنها ظلت تلك المدينة المنفلتة عصية الاحتواء.

-أهذا موعد مناسب للالتحاق بمستشفى باريسي؟ تساءل صديق تطوع لمرافقتي إلى مشفى سالْبيتْرِيِّير. الرابع عشر من يوليو يوم احتفال، أكل، شراب وعطلة.

-إنه فأل حسن، هذا يعني أن نتائج الفحوص ستكون مطمئنة. علق صاحبي.

قبل الذهاب إلى مشفى، لابد من طقوس معينة، العادة تقول: نظف نفسك جيدا، نظف روحك فقد تدخل ماشيا على رجليك وتخرج محمولا على محفة. يحدث هذا في مستشفيات مغربية، على الخصوص. كُلْ جيدا، فهم يبدؤون في شفط دمك منذ دخولك حتى خروجك.

لابد أن تتوفر الحقيبة، إضافة إلى مشط وفرشاة أسنان، على قنينة عطر. رائحة المعقمات والأدوية تثيران الغثيان، منامة واحدة تكفي. فهم يقدمون لك كل يوم بذلة، الوردي للنساء والأزرق للرجال. في العناية المركزة لك الحق في غطاء للرأس، غالبا يكون من نفس اللون، حرصا على أناقة أكثر. ثم، لا تنسَ قلما وأوراقا بيضاء، فلا أحد سيدون موتك غيرك.

الطريق إلى المشافي يكون دائما كئيبا وثقيلا، لكنه في باريس أقل كآبة. خصوصا في يوم كالرابع عشر من يوليو. حيث تختفي باريس الرومانسية وتحل محلها باريس العسكرية.

قبل أن نصل إلى بُولْفارْ دُولُبيطال الهادئ نسبيا، استطعت أن أرى من خلال نافذة التاكسي، واجهات الأبنية، والمكتبات، والمقاهي، والمراكب الطافية على نهر السين، مزهوة بألوان العلم الفرنسي، ومرصعة بمصابيح بكل الألوان والأشكال. اكتظاظ أمام محطات المترو. أناس عائدون جماعات من الشانزلزيه. أطفال يلوحون بأعلام صغيرة وحلوى غزل البنات.

يومها ظل المطر يهطل بغزارة، حتى أربك الاستعراضات العسكرية، وغطى عنفه على أصوات الطائرات. إنه عيد الثورة، رحم فرنسا الحالية. العيد الذي يعتز به كل الفرنسيين، يمين ويسار،

ويقدسونه. صوت إيديتْ بْيَافْ يتردد في داخلي، خلفية لهذه المشاهد الفريدة: «بَدامْ، بَدامْ.... دي جُوتيمْ دو كاتُّورْزْ جْوِيِّي... بَدامْ، بَدامْ، بَدامْ»

بعد إجراءات الدخول، أخذتني ممرضة مرحة إلى غرفة انفرادية. فيها من الأثاث ما قَلَّ وَدَلَّ. سرير واحد، طاولة جانبية. دش ومرحاض ملحقان بالغرفة. منشفة وصابونة من النوع الرخيص جدا. بطبيعة الحال، كانت رائحة الأدوية والمطهرات تملأ المكان. إضاءة واحدة، فقط، في هذا المشهد الكئيب، شجرة تطل في خفر، من نافذة تطل بدورها على باحة خارجية، يتوسطها أصيص ورد.

سخرت من نفسي، فلكثرة ما سكنت غرف المستشفيات، أصبحت أدقق في محتوياتها وأقارن بينها، بدل أن أحرص على جودة العلاج، وكفاءة الأطباء.

رغم الاختلاف تبقى جميعها غرفا بيضاء مفتوحة على احتمالات الموت أو الحياة. لكنني لم أنسَ أبدا أول غرفة قرَّبتني من الموت. في تلك الليلة لم يكن الموت أبيضَ كما هو عليه الآن، بل كان أحمر بلون الدم الذي كان يملأ طستا بعد آخر، ويغطي الملاءات وبذلات الأطباء البيضاء. وكنت أنا أسبح في ندف من القطن الناعم والدافئ تأخذني بعيدا. لم أسمع الصرخة الأولى للمولودة المغادرة لأحشائي، فقد كنت حينها أراقب مقايضة واضحة بين الموت والحياة، مقايضة تتطلب روحا مقابل روح.

لم تحسم المقايضة إلا عند مطلع الفجر، حين أوقف الطبيب آلة بجانبي، وأزاح ستار النافذة ليفسح الطريق لخيط ضوء كي يلامس سريري وهو يخاطبني: صباح الخير سيدتي، اليوم وُلدتِ من جديد، لقد أعطاك الرب عمرا آخر.

لم أبتهج حينها؛ لأنني كنت على يقين، أن أي تعديل في الطبيعة، أو تحويل لمجرى الأقدار، يؤدي بالضرورة إلى زيف العمر المضاف.

طرق خفيف على الباب.

دخل رجل أشقر وطويل بدرجة لافتة. أنيق وحسن الهيئة، إلى درجة أنني ظننته طبيبًا.

-أنا جانْ بْيِيرْ، أنسق بين المطبخ والمرضى -قدم الرجل نفسه- مسلمة أليس كذلك؟ سأل وهو يلقي نظرة على ملف بيده للتأكد.

-إضافة إلى بعض الخضر التي تحتوي على الفيتامين «ك» ولحم الخنزير. والملح، هل لي أن أعرف الأطعمة الأخرى التي لا تأكلينها؟

-آكل كل شيء، فقط، لو قليل من الملح.

-ليس ممكنا مدام، تعليمات الطبيب تؤكد ذلك. قال وهو يدون ملاحظاته بابتسامة ودود.

بعده مباشرة دخلت الممرضة. إطلالتها المرحة تذيب صقيع الغرفة.

قاست الضغط والحرارة. دوَّنت النتائج على الرسم البياني عند قدم السرير. أخذت عيِّنة من الدم، وزعتها على خمس قنينات صغيرة.

- المغرب بلد جميل، قالت دون مقدمات، عندكم على الأقل لا تمطر في شهر يوليو. في أواخر السبعينيات، رافقت بعثة طبية إلى هناك، قضينا سنة كاملة في نواحي ورزازات، نجوب القرى النائية. كان الشغل مكثفا، انتشار الأمراض والبؤس حينذاك، لم يدع لي مجالا للسياحة. الناس كانوا يسكنون بعيدين عن المراكز الحضرية. مرة، اضطررنا لأن نخيط رحم امرأة، في ضوء الشموع. تمزق رحمها خلال ولادة عسيرة لثلاثة توائم، تخيلي ذلك، في خيمة من القصب والقش، بلا ماء ولا كهرباء. كانت ليلة لا تنسى.

رغم جمال الطبيعة والجو الدافئ، فقد عدتُ وأنا لم أرَ من المغرب إلا ذلك الوجه القاتم. منذئذ، وأنا أحلم بقضاء عطلة في المغرب. انشغالات الحياة، الأولاد، العائلة، العمل. لم تسمح لي الظروف إلا هذه السنة. رتبت أنا وشلة من الممرضات، سفرا إلى مراكش في شهر سبتمبر. يحكون أن المغرب تطور كثيرا، أليس كذلك؟

-نعم، لكن ليس بالقدر الكافي. ليس في كل المجالات، والدليل أنني هنا للتطبيب. العقليات لم تتغير.

-ربما أنتم الآن، في حاجة لِكَتُّورْزْ جْوِيِّي بجلابة مغربية. وغمزت بعينها ضاحكة.

وهي تنحني؛ لغرز حقنة في ذراعي، استطعتُ أن أقرأ الاسم على اليافطة الصغيرة فوق صدرها.

- شكرا إرْمينْ. تبعها صوتي الممتن، قبل أن تختفي في الممر.

[...- ما اسم الشجرة؟

تردد صوت من بين المشاتل المزهرة للمشفى.

- ما اسم الشجرة؟

ثم قفزَ إليَّ من النافذة، واقفا قرب سريري، منحنيا عليَّ، كتجلي المسيح، في السقف العالي لكنيسة القلب المقدس.

تطلعتُ من خلف الزجاج المضبب، رأيتُ أخضرَ ناضجا يتدفق من بين الأغصان.

غمغمتُ بكلام لم أسْمعه.

هزني من كتفي بعنف المشتاق، وسألني للمرة الثالثة:

- ما اسم الشجرة؟ حاولي أن تتذكري: اسم الشجرة، زهر اللوز، أيقونة العذراء، رائحة المريمية، زهرة الأوركيديا البيضاء، كنيسة القلب المقدس، تفاحة المساء...

قلتُ:

-مهلكَ، في هذه الغرفة الكئيبة من هذا المشفى، وصوت المطر الغزير، لا أستطيع أن أتذكر غير موتكَ وموتي.

-أُدْرك، ذاكرتُكِ شُلت من الجبن.

-لا، لا، ليس في هذه المرة، حتى أنني، صرخت بهم، افتحوا التابوت فستجدونني.

-إذن، اذكري الرب والحياة.

-لم أكلم الله كثيرا، فيما مضى من حياتي. لا أظن أنه سيعرفني إن كلمته الآن..

فاقِدَ الصبر، أطلَّ من النافذة، باحثا عن تفصيلٍ دقيقٍ لشرحِ المعنى. انتشلني من السرير. وضعني

على حافة الهاوية.

- لا تنظري إلى الأسفل، ارفعي وجهك للسماء. ذاك النيزك...

صرخت:

- إنه أنتَ. إنه أنتَ... روحي لا تُخْطؤُكَ.

غاضبا مني، هزَّني ثانية، وكمن يُعلِّم طفلة صغيرة الكلام، نطق بتقطع:

- ا.. ل..ح..ي..ا..ة]

- العشاء جاهز مدام. لكن عليكِ قبل ذلك تناول الدواء.

أيقظني الرجل الطويل بلا معنى.

- شكرا.

-الوجبة خفيفة جدا، ذلك مقصود. في الصباح، سيأخذونك إلى جناح آخر، للفحص بالبِيتْسكَانْ. من الأحسن أن لا تكون معدتك ممتلئة. شهية طيبة، وتصبحين على خير.

[... أهوي في الظلام، كوَّة عميقة سوداء، بلا مخرج. الهواء ساخن والجو حار. لم تمضِ سوى لحظات وصرت أتصبب عرقا. ومع ذلك فإن رجفة تهزني من أخمص قدمي حتى الرأس. هل هي رجفة برد أم رجفة خوف من المكان؟

في الخارج، الطقس عاصف، رياح عنيفة تتقاذف المصاريع، أغصان الأشجار تلتطم بالسقف. المطر يتساقط بغزارة.

نفس السؤال الجاهز: ماذا أفعل هنا؟

هل لي أن أفترض أن زوبعة الريح العاصفة في الخارج، هي التي رمتني في هذه الغرفة، عبر نافذة السقف المفتوحة، أو بالأحرى عبر زجاجها المكسور، فلم يتبق غير الإطار الخشبي المتآكل؟ لكنني

باستثناء تجعد مناميّ وشَعْري غير المرتب، فلا خدوش أو كدمات على جسدي، تدل على أنني دخلت بهذه الطريقة العنيفة.

استغربت، لِمَ لم أطرح السؤال الموالي: أين أنا؟ فسياق الأحداث يفترض ذلك. هذا الهدوء وهذا الخدر الخفيف، وعدم الاكتراث غريب عني. أعرفني متوترة دائما. سريعة الحركة ورد الفعل. متوجسة من كل ما هو مظلم ومجهول. قريبة الغضب والبكاء، مبتعدة عن كل ما هو مغامرة، مترددة، لكنني قطعية القرارات.

في هذه اللحظة الغامضة، أجدني في حياد كامل، كمتفرجة. كأنني أنهيت مهمة حياتي، وأنا هنا، أطل من علٍ، على حيوات أخرى.

هل هي حيوات تلك الشخصيات، التي كنت أتسلى بتشكيلها من لغتي الشعرية، عادت وَتَلَبَّسَتْني؟

يحدث أن أؤثث قصائدي، بشخصيات غريبة عن عالمي. مرة كتبت قصيدة تتحدث عن جندي عائد من الحرب بِرِجْلٍ خشبية. لا أذكر عنوان القصيدة بالضبط، لكن صورة شعرية تحضرني الآن: رجل يضع رجله الخشبية عند عتبة الباب، كل مساء، قبل أن يذهب إلى سريره لينام. من أين جئت بهذه الصورة؟ أبحث في ذاكرتي. لم أصادف يوما شخصا بهذه المواصفات، أو رأيت مشهدا سينمائيا يشبه ذلك. هل حلمته بنفس القوة التي أحلم بها الآن، فحققته في الشِّعْرِ، كما أحقق هذا الحلم بواقعية تتعدى الواقع؟

ففي اللحظة التي أنا هنا في هذا البيت، أنا هناك بعيدا، في مكان ما. ربما مستلقية على سرير أو غافية على كرسي، أبحث عن مخرج لي من هذا الحلم. سالكة حلما آخر أكثر متاهة.

قبل أن أقف، كانت كوة ضوء تتسع تدريجيا، وتضغط برفق على جفوني. انزاحت غيمة عن ممر القمر، وتسللت خيوط فضية لتنير العتمة. قمر في أبهى اكتماله. آسف لهذا الجمال الذي تَفَّهَهُ أرمْسترونْغْ حين خدش تلك الصور الرائعة للقمر، التي رسمها له الشعراء، وقَوَّضَ قصائد، بل دواوين شعر كاملة بوضع رجله على سطح القمر. لا أدري كيف تجاهل بعض الشعراء -حتى الآن- تلك الوقائع العلمية، واستمروا في ديباجة روائعهم، دون أن تصطدم مخيلاتهم بالمركبات الفضائية، في رحلات الذهاب والإياب الروتينية، من وإلى هناك.

من طول ما عشتُ في العتمة، تعلمتْ عيناي فَكَّ شَفْرَةِ الظلمة. أصبح السواد بالنسبة إليهما بابا

مفتوحا على الضوء: نفس العلية، في نفس البيت، لم يتغير شيء، كل شيء كما وجدته سابقا، حتى المصباح اليدوي المعلق على يمين المدخل. أحدهم أعاد ترتيب فوضاي مع تغيير موضع الكرسي الهزاز، إلى جانب الباب. تحاشيت النظر في اتجاهه، من الآمن لي ألا أجلس عليه.

مازالت ذاكرتي تحتفظ بتلك الرجة القوية للكرسي، التي أفقدتني توازني للحظات.

لكن، أين الإجابة عن سؤال اللحظة: ماذا أفعل في هذه العلية؟ من أين جئتُ؟ ثم ليس عليَّ أن أنسى السؤال الأساسي هنا: ما اسمي ومن أكون؟ لست الآن سوى كومة من الأحاسيس والذكريات.

قررت، سأؤجل كل الأسئلة إلى وقت لاحق، لا يكون فيه ذهني مشوشا. كما أن الصور والأحداث تتوالى بسرعة، لا أستطيع معها التركيز في التفاصيل الدقيقة. سأعتمد على حاستي البصرية الثاقبة -كالعادة- لأسجل. بعد ذلك، أستعيد الشريط، أتَحَرَّى وأحلل كما يحلو لي. عليَّ التركيز في الحذر. الحذر هو عنوان اللحظة. أي خطأ مهما كان، سيوقظ ساكني البيت والكلبة. لحد الساعة ليس لديَّ مبرر مقنع لوجودي هنا، أقدمه لهم.

صمت إلا من حفيف الأشجار، وخرير الماء ينزلق على القرميد، قبل أن ينتهي إلى جداول صغيرة في الباحة والحديقة.

لا نباح للكلبة ولا سعال للرجل. البيت فارغ تماما. نزلت من العلية، جُلت بين الغرف، أطللت من نافذة غرفة الابن، ما كان اسمه في الحلم السابق؟ آه! نعم، بُولْ.

كان المطر غزيرا. بِرَكُ الماء تغطي الباحة والمدخل. ضوء اللمبات الموزعة على الجدران مهددة بالانطفاء المفاجئ، الريح القوية تلطمها بدفقات متتالية من المطر. من نافذة غرفة نيكول، البنت الكبرى، استطعت أن أرى الحديقة سابحة في ظلمة كثيفة، أعراش شجرة الكرز الياباني وقد كستها بعض الأوراق. المكتبة تعبق برائحة دخان السجائر. المرمدة ممتلئة كالسابق.

شجعني فراغُ المكان ونزلتُ إلى الطابق السفلي. تركت غرفة النوم على اليمين، ودخلت صالونا واسعا على اليسار. وضعت المصباح اليدوي جانبا. أشعلت مصباحا رأسيا، فوق أريكة من الجلد الأحمر، وُضعت مُوَاجِهَة لشاشة أقرب إلى صندوق خشبي مغلف بالفورميكا اللامعة، منها إلى تلفزيون.

يكاد يكون الأثاث ضئيلا بالنسبة للمساحة. صوفا لثلاثة أشخاص، وأخرى لشخصين، من المخمل الأحمر. بساط مشغول من الصوف ذو ألوان وأشكال أمازيغية، مغربية دون شك. في الوسط مائدة من الخشب المرصع بالأصداف، صناعة سورية أو أردنية. بنفس الشكل ونفس الخشب، خزانة ملابس، لكنها في هذا المكان استعملت لحفظ أوانٍ خزفية وطقم من الملاعق والشوك والسكاكين الفضية وشراشف وأغطية للمائدة.

أسفل الخزانة مجلدات قديمة، بعض صفحاتها ممزقة ومبعثرة. تفحصت كعوب المجلدات، استغربت كتابة بالعربية، المجلد نسخة قديمة لألف ليلة وليلة. سحبته بلطف حتى لا يتناثر بين يدي غبارا.

بين الأوراق المتآكلة، بطاقة مصفرة، بطاقة عمل:

الاسم: خوان رودْريغو أُمَيَّا(******).

المهنة: عامل.

مصنع فيرفيشتيغير.

العنوان:139 شارع رُوزِنْتَالِرْ. هَاكِيشَارْمَارْكْ. برلين. ألمانيا.

ختم بتاريخ18-6-1943.

توقيع المدير: أُوتُو فايْدِتْ.

الصورة لشخص ضرير. عيناه فارغتان كمحجرين.

قلق وشعور بعدم الارتياح في هذا المكان. العلية جوها أريح.

البارز أكثر في الصالون، هي المدفأة، بحجمها الكبير، وعلو يتجاوز المتر، دفتين برونزيتين برسوم لمخلوقات غريبة، نصفها العلوي بشري، ونصفها السفلي لحيوانات ضارية. فوق المدفأة وعلى مصطبة رخامية، شمعدان سداسي من النحاس. صورة نصفية كبيرة وواضحة لرجل في الثمانينيات أو أكثر. شفتان مزمومتان. أنف حاد. عينان زرقاوان، تحدقان في الكاميرا بأنفة كبيرة.

يخالف ذراعيه. من خلال انحسار كم القميص، يتبدى رقم إيداع بمعسكر احتجاز، منقوش بطريقة الوشم على ساعده الأيمن. يبدو أن الرجل احتفظ ببقايا شخصية قوية ومتسلطة، رغم تقدمه في السن.

لكن ماذا تفعل لوحة لرسام مشهور كسلفادور دالي وسط أثاث قديم وبئيس؟ رغم أنها سيريغرافي للوحة «فينوسْ المبتسمة»، فهي تحمل توقيع الرسام. وهذا، في حد ذاته، ثروة لا بأس بها. اقتربت، بقلم الرصاص وبحجم صغير يكاد لا يُرى، خُطَّ إهداء بالإسبانية: (إلى إرمينْ، كُونْ أَمُورْ). لو لم أكن قد زرت المعرض الدائم للرسام في بلدة فيغيراس على الحدود الإسبانية الفرنسية، ورأيت بعينيَّ اللوحة الأصلية بتوقيع دالي نفسه، لَشَكَكْتُ في الأمر. لكن مَن هذه الإرْمينْ التي حظيت بكلمة حب من رسام بقيمة وحجم دالي؟ ثم كيف تُترك لوحة بهذه الأهمية، معلقة على جدار مشروخ ومبرقع من أثر الرطوبة؟

الأثاث الوحيد الذي يحمل توقيعا فرنسيا، في هذا الصالون، هي الكومودا المركونة عند المدخل سْتيلْ لْوِي كانْزْ، بأدراج خمسة. فوقها غراموفون عتيق ببوق نحاسي، ودزينة من الأسطوانات، وصف طويل من الأشرطة. قَلَّبْتُها واحدة واحدة. يهمني أن أعرف الذوق الموسيقي لأصحاب البيت؛ لأتعَرَّفَهُم أكثرَ. كانت أغلبها أغاني الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي. تهت بين أسماء مغنين بمختلف اللغات. عرفت منهم المغنية المصرية أم كلثوم. حبيبة مْسيكَة التونسية. المغنية الإسبانية رُوسِيُّو خُورَّادُو. المغني اليهودي الفرنسي ذو الأصول الجزائرية إِنْريكُو مَاسْيَاسْ. سمفونيات لبيتهوفن. «بحيرة البجع» لتشايكوفسكي. المغني الفرنسي سيرْجْ لاما. مغنية جزر الرأس الأخضر سيزارِيَّا إيفورا. والكثير من تسجيلات الأيقونة الفرنسية إيديثْ بيَافْ.

حقنة جاهزة للاستعمال، نُسيت أو تُركت عن قصد على حافة الكومودا.

فتحت الدرج الأول، كراسات، أظرفة ثم مغلف كبير أصفر، ملطخ ببصمات أنامل غير نظيفة عبرته. تآكلت حواشيه، وتلف لصاقه. ربما لكثرة ما فُتح وأغلق. قلَّبته، لاشيء مكتوب على المغلف، على كل حال فهو لم يرسل بالبريد، بل تُرك هناك لزمن طويل.

ترددت طويلا قبل أن أفتحه.

صوت والدي محذرا:

- أن تفتحي رسالة شخص آخر، فأنتِ تفتحين قلبه بدون استئذان، وتُطلّين على عراءِ روحه.

لا أحد كان يجرؤُ على فتح رسائل الآخر في بيت العائلة.

- لكن، أبي، إنها مسألة هوية، أنا الآن، لا أتجسس على أحد بل أبحث عنّي.

فتحتُه:

«عزيزي خوان:

أكثر من عشرين سنة، مضت. لم أكتب إليك غير تلك القصاصات التي كنت أعلقها على باب الثلاجة؛ لأخبرك بتأخر طارئ عن البيت، أو تعليمات تنقلها إلى الخادمة، أو تنبيهك إلى ضرورة مرافقة أحد الأولاد لأنشطتهم الموازية.

رغم أنني لست مطالبة بتبرير قرار، هو نهاية طبيعية لزيجة بهذا الشكل. يحدث هذا في كل زمان وكل مكان من العالم. لكنني لن أتصرف بمثل أنانيتك، وأرحل دون تبرير.

عمر طويل مضى، لم نتكاتب أو نتكاشف، رغم أن بداية علاقتنا كانت على الورق. كنتُ الأكثر قدرة على التعبير كتابة. صُغتُ لك أجمل رسائل حب. عكس أجوبتك المقتضبة والجافة، التي كانت تغضبني.

كان مبررك أنك رجل علم، لا تحسن التعبير عن مشاعرك، وتربيتك المحافظة أكسبتك خجلا وتحفظا في الإعلان عن الرغبة والحب. ثم لا تلبث أن تذكرني بتوَجهي الأدبي الأول وأنا في الثانوي، دون أن تشير ولو مرة، إلى أنني غيرته لدراسة علم النفس؛ لأكون قريبة من مجال تخصصك، كطبيب للأمراض العقلية. فأكون قريبة منك.

لم أفتح رسائلنا القديمة فيما بعد، ولو مرة، فكل رسائل الحب تبدو سخيفة ومضحكة، حين نعود إليها بعد سنوات.

أعرف، ستستغرب قرار الطلاق. إرْمينْ التي تعرف أنتَ، لا تقدر حتى على تغيير مكان كرسي في البيت، فكيف تُغيِّر مجرى حياة؟

أنا مثلك، تساءلت، لكن أسئلتي كان لها منحى آخر، لُكتها طيلة الشهور الأخيرة. لم أكن أصبو إلى الجواب بقدر ما كنت أبحث فيها عن قوة؛ لأحسم القرار:

ما الذي حرَّضَ الريح على نزعِ أوراق شجرة الخريف؟ ما الذي جعل لحظة الذبول أقسى من لحظة الموت؟ من الذي جعلني أنظر إلى جسدي كأكلة بائتة، أو مُعَلّب استنفد صلاحيته؟.. هذا الجسد الذي احتضنني مسافة طويلة من العمر، ما الذي جعله رعبا ليليا يسكنني وأكرهه؟.. هذا الجسد الذي حافظت على طهارته ونقائه وهو في زهو شبابه وعز عطاءاته. حافظتُ عليه باسم الإخلاص والحب والوفاء؛ لأكتشف في منتصف العمر، وأنا أتلمس آثار الزمن عليه، أنني كنت مخدوعة منذ بداية الطريق. وأنني وحدي من آمن بأخلاق ومُثُل لا ارتباط لها بالواقع. وأنني باسم الحب والإخلاص، قتلت فيه كل شيء جميل، وحمَّلْتُه ما لا يحتمل.

كيف سمحت لك بذبحي بهذه البشاعة؟ استغللت جهدي فكنت أرتب فوضاك، حتى انهدَّ مني الجسد، ولم أعد أصلح حتى لصعود أدراج كهولتي. استنفدت حبي وعطفي حتى لم يتبق لي ما أدفئ به وحدتي الباردة. واستغللت عواطفي وسذاجتي، فلم أكن لك غير آلة تفريخ لنطفك. أتفرج عليك وأنت تلتهم جسدي. جسد، ما همك متى يشتعل ومتى ينطفئ.

وباسم النقاوة والطهارة، قضيت عمري أروض الجسد على حياة خارج الطبيعة الإنسانية، جسد لا يرغب، وقلب لا يحب. في الوقت الذي كنت أنت غارقا في نزواتك العابرة، تغير عشيقاتك كما تغير جواربك. نساء من كل نوع: كهلات، شاذات، جميلات، قبيحات، حمقاوات، سويات. عرفت فيما بعد أن العديدات منهن استضفتهن أنا في بيتي، وأنا من حضر لهن الأكل.

كان البيت بركة آسنة من الخيانات.

أموت غما وتموت أنت نشوة. أنام وردة في سريرك، وتحلم أنت بزهرة دفلى.

كم تمنيت أن أكون أنا تلك العشيقة ولو لساعات، على أن أكون الزوجة المزيفة والمخدوعة طيلة سنوات.

كيف سُرقت أحلامي في وضحِ النهار ولم أَحْتَجّ؟ كيف أخلصتُ لِمُثُلٍ كاذبة وخُنتُ جسدي؟ كيف سكنت عشا فارغا، ولم أدرك أن رياح الخريف ستكون عاتية؟

مُرّة في فمي هذه الخديعة.

القطار سار بسرعة، والعمر واحد، والجسد مادة لا تحتمل تحولات الزمن. مضى بي العمر، فاكتشفت أنني أصبحت بلا ظل، لا أحد ينتبه حين أدخل مجمعا أو حين أخرج منه. لا أحد يفسح لي مقعدا بجانبه، فبالأحرى في قلبه. أصابني الغبن، نظرة متفحصة في المرآة لوجهي المتعب تُرجفني. أصبحت أكثر انعزالا ووحدة. انطفأت بداخلي اشتعالات شباب لم أحترق بها.

يهَولْ الانحدار تسارع إيقاع حياتي. حاولت الإمساك بطراوة ضائعة. حاولت التشبث بأي شيء مهما كان بسيطا؛ لأثبت لك أنني مازلت هنا، موجودة وحية.

جرَّبتُ الكلام فالتهمني الصمت، أبعد هذا العمر أطالب الآن بحقي في الجنس، في الحب، في الحلم؟ ابتلعتُ لساني خجلا.

وكمحارة شاطئ مهجور. تقوقعت داخل ذاتٍ مفرغة، ودخلت رهبانية إجبارية. ألوك حسرة هذا الجسد، الذي ما كان يوما جسدي.

تعبت من دور الضحية.

«عندما يمتلئ القلب، ينبغي أن تنفتح الشفتان».

ضغط الألم بقوة على جروح قديمة فرأيت دمي مهدورا وكرامتي مهانة.

وَعيتُ الزمن. إذا لم يلاحظ رجل إشراقة ربيع امرأته، فكيف يستطيع أن يصون ذبولها، وهي تهوي نحو كهولة رديئة؟

وكما في طقوس الزواج الكاثوليكي، كان عليَّ أن أتكلم الآن، أو أصمت إلى الأبد.

في حلم ما:

«رأيتُني امرأةً بجلد أفعى، وشَعر أسود طويل، مجعَّد كحبال مرسى. أظافر بطول الأغصان. عيون بشراسة ذئبة. صدري مشقوق، وقلبي نبع لسائل، لا لون له، يصب في مجارٍ كثيرة».

أغواني الحلم، التحفته، وقررتُ أن أُغيِّر المعادلة: لماذا أكون أنا، دائما، المنتظرة، الصامتة، المهزومة، الخجول، الضحية وتفاحة الغواية. أشرع لك مفاتن الحياة، وأنتحي بروحي جانبا أتفرج؟ لماذا ولماذا ولماذا...؟

هكذا، قررت أن أكون أنا الأقوى...»

كان أسلوب الرسالة سلسا وجذابا، إلى درجة أنني لم أسمع صوت انفتاح الباب الحديدي. لم أنتبه إلا وسيارة دخلت الفِنَاء. ثم أصوات هرج ومرج، قادمة في اتجاه الباب الرئيسي.

تَعَثُّرُ قَدَمٍ ما، أوقع أصيص الطين فانكسر.

يبدو أن القادمين في حالة سكر.

صوت رخيم لامرأة أثارَ الكلبة. قفزت من مخبئها، أصابها سعار مجنون، فصارت تنبح بشدة.

- لايْكَا! كايَّاتي! صرخ الرجل بالإسبانية.

يبتعد النباح تارة، ثم يقترب بحدة أكثر.

- أُشْ! أُشْ! هل عُدْتِ مرة أخرى لغيرتك البلهاء.

صرير مفاتيح في الباب.

صعدت الدرج بسرعة، نسيت معها إطفاء الضوء. ما إن وصلت الطابق العلوي، حتى سمعت صوت الرجل مستغربا: أكانت اللمبة مضاءة قبل مغادرتنا؟ وصوت المرأة ساخرا: لقد سَكِرْتَ يا حبيبي خوان، احذَر، تأثير الكحول على الذاكرة يصبح أخطر مع تقدم السن.

تسللتُ إلى العلية والرسالة لا تزال في يدي. لكنني نسيت المصباح اليدوي بجانب أريكة الصالون. خمَّنت أن الساعة الآن قد تجاوزت الواحدة صباحا. عليَّ أن أنتظر. يقال إن النوم يُصبح أعمق في الثلث الأخير من الليل.

في الظلمة الزرقاء افتقدت المصباح.

مضت ساعة أو أكثر، قبل أن أقرر أن السكارى قد ناموا، وأنزل من عليتي.

عند الدرج الأخير، وفي اللحظة التي وضعت فيها قدمي على بلاط الردهة التي تتوسط الغرف وتؤدي إلى السلم السفلي، اصطدمت وجها لوجه بامرأة خارجة من الحمَّام. عارية إلا من غلالة مخططة بالأسود والبني، كفروة نمر، يسبح فيها جسد صغير ونحيل. لون شاحب. شعر أسود فاحم منكوش. ماكياج ملخبط، لا يخفي جمالا ناضجا لامرأة جاوزت الأربعين. حدقتْ فيَّ عينان زرقاوان واسعتان بدرجة مخيفة، تحيطهما أهداب سوداء طويلة جدا. نظرة ظليلة وضارية في نفس الوقت. نظرة لا أظن أنني سأنساها فيما بعد، كتلك التي نراها في أفلام الرعب، لامرأة مقتولة.

كدت أصرخ. الفزع كتم صوتي للحظة، لكن المرأة تجاوزتني أو اخترقتني -لا أذكر بالضبط- دون أن تُبدي أدنى اهتمام أو رد فعل.

هل كانت المرأة منوَّمة؟ كيف مرت دون أن تحاذيني؟ هل دخلتُ خطأً حلم امرأة أخرى؟ فكثيرا ما تتشابك الأحلام، خصوصا أحلام النساء.

هل أفهم أن الكلبة، وحدها، في هذا البيت، من تُدرك وجودي وتراني حتى في الظلمة؟

تَتَبَّعْتُ خطى المرأة. زلَّتْ قدمها عند الدَّرَجِ الأخير، أنَّتْ.

دخلتْ غرفة النوم.

تحت ضوء لمبة حمراء، رجل مُستلقٍ على سرير، في حالة انتظار وتأهُّب. استقبل المرأة بين ذراعيه. سقطت المنامة عن جسد صغير، مازال يحتفظ بجاذبيته رغم آثار السن، باستدارات خفيفة وساعدين نحيلين. بقدر ما كانت المرأة نحيفة وضئيلة كان الرجل كتلة لحم بشرية ضخمة، يحمل كرشا كبيرة تباعد بينه وبين المرأة.

في البداية بدت المرأة الضئيلة مشاركة ومستسلمة.

بين الفينة والأخرى، تلتقط طرف الملاءة؛ لتستر أعضاءها الحميمة. تمد يدها لإطفاء الأباجورة الجانبية مثل امرأة خجول أو غير مطمئنة لجسدها، فتعترضها يد الرجل ممانعا.

تحت بصيص النور المتسرب من الحمَّام، ضبطتُ الكلبة واقفة عند عتبة الباب. نظراتها مركزة باهتمام غريب على المشهد الجنسي. بهدوء ودون حركة، هي التي تتبع سيدها في كل اتجاه، ويصيبها السُّعار، كلما سمعت صوتًا أو شخصًا غريبًا. هل تدرك تلك المخلوقة الغريبة الفعل الجنسي الذي يُمارس أمامها، كَيْ يَتَلَبَّسها ذلك التأمل الهادئ؟

بحدس الأنثى، أدركتُ أن المرأة رغم اندفاعها وجموحها قليلة التجارب، جاهلة تماما بالخطوات التالية لرجل عاجز. فقد انقلب المشهد الرومانسي إلى صراع حيواني. فشل الرجل المتكرر جعله أكثر عنفا وعدوانية.

استمرت المرأة في المقاومة. أدارت رأسها وبصقت، شد شعرها بعنف أكثر، فقط، في تلك اللحظة انتبهت إلى أن شعر المرأة طويل حتى الجذع.

في النهاية، تستسلم المرأة. يرتفع شخير الرجل. ثم تسترخي كل أعضائه.

ابتلعَ عدة أقراص، وضع كمامة الأوكسجين، أطفأ الأباجورة الجانبية دون أن يلتفت للجسد المستنفد الملقى بجانبه كخرقة بالية. ثم أغمض عينيه.

عدت لتأمل الكلبة، كان بوسعي رؤية دموع تلمع تحت الضوء. ليست لي خبرة في هذا المجال، لكنني لأول مرة أرى وأعرف أن الكلاب تبكي. ما أحزنني، أنها أحنتْ رأسها بانكسار بادٍ، غادرتِ الغرفة، وتكوَّمتْ عند مغطس الحمَّام، كأنثى مجروحة.

يبدو أن كل أنثى عبرت هذا البيت، أخذت بشكل أو بآخر نصيبها من الألم.

صوت جريان الماء في المرحاض.

عادت المرأة بخطى مضطربة إلى السرير. بيد راجفة، حَرَّكَتِ الجسد الضخم:

- أسمع خطوات في الطابق العلوي.

هَمستْ في أُذُنِ الرَّجل الذي غمغم:

- نامي، لا تهتمي، إنها تلك المجنونة، رحلت وتركت قدميها خلفها؛ لتزعج نومي، لم يكفِها إزعاج

يقظتي، منذ تسع سنوات.

المرأة خائفة، الرجل تناول المنوم. لن أخشى مصادفة. تحاشيت الكلبة النائمة في الممر، دخلت الصالون، استرجعت المصباح اليدوي.

ثم صعدت الدرج والرسالة ما تزال في يدي.

«... أول الأساس كان كذبة. يوم زُرْتُكَ في الحي الجامعي، أخذتني إلى الغرفة التي كنتَ تتقاسمها مع طالب جزائري. لتخلو بي، تخلصتَ منه بصعوبة. أحسست منه -حينها- غيرة لم أفهم سببها.

كانت أول مرة نمارس فيها جنسا كاملا بعد مضي أكثر من سنة، على أول لقاء. كانت دهشتي كبيرة، حين اكتشفت أنك مختون. سألتك، علَّلْتَ الأمر بمرض أصابك في الصغر. فلجأت العائلة إلى عملية الختان. صدَّقتك. حين تحب امرأة تصاب بعمى الكلام.

لا أعرف لحد الآن، ما الذي اضطرك للكذب حينها، وأنت تعرف أن والديَّ مناضلان شيوعيان، وأنني ترعرعت في وسط لا يهمه الدين في شيء.

لم أُدَقِّقْ في اسمك العائلي الذي أثار فضول والدَيَّ. اسم يَحْتَمِلُ نطقين إذا كُتِبَ بالحروف اللاتينية «أُمَيَّا» أو «أُومِيلاَّ». اسم غريب عن مجتمعنا الفرنسي.

الكذبة تلد أخرى وأخرى إلى آخر العمر.

أفراد عائلتك كانوا صموتين، نادري الكلام. في المرات القليلة التي زرت فيها العائلة قبل الزواج، كنا نجلس على مائدة الطعام أكثر من ساعتين، دون أن ينطق أحد بكلمة واحدة. حين أتمتم بالشكر والامتنان، أو أفصح عن مجاملة لوالدتك، مُعَلِّقَةً على لذة الطعام ومهارة الطبخ، الذي كان مُتَبَّلًا ولذيذا بالفعل، ومختلفا عما نطبخه في بيتنا. لا أحد كان يجيب، بمن فيهم والدتك. تلك الحماة، التي لا أستطيع لحد الآن، أن أسترجع ملامحها كاملة. امرأة شفافة، ومنفلتة، شخصية بلا ظل، قابلة للنسيان والمحو، بمجرد ما تغادر الصالون وتختفي في المطبخ -إقامتها الدائمة- تُنسى تماما، ولا يتبقى منها غير نظرة حزينة مستسلمة، وكتلة ألم، تخلفها على الكرسي الفارغ. حين ماتت فجأة، وهي في السادسة والأربعين. أَخْبَرَتني بجملة عابرة، أنها كانت تعاني سرطانا في الرحم. لم أكن قد بادلتها أكثر من ثلاث جمل جاهزة، نكررها عند كل لقاء: صباح الخير، مساء الخير، إلى اللقاء.

امرأة عبرت الحياة دون أن يلتفت إليها أحد.

الوحيدة التي كانت تبادر بالكلام، هي أختك سارة لتغيظني، وفيما بعد لتقذفني بانتقادات لاذعة: تربية الأولاد المدللين، عدم انضباطهم على مائدة الطعام، وجهلهم بشعائر الدين، إفراطهم في

تناول الأكلات الجاهزة والحلويات، أناقتي المبالغ فيها، فوضى البيت. طبعا، كنت مَصَبًّا لجميع عُقدها: عنوستها، سمنتها المفرطة، الإحساس بالدونية أمام سيدة فرنسية أصيلة. ثم باعتبارها تحل مكان الأم فيما بعد. هي البنت البكر، التي عليها قيادة العائلة، وتوجيه حياة الأخ الأصغر.

ظل والدك، الوحيد في العائلة الذي كان يبادلني مودة صامتة وتعاطفا غير مشروط، خصوصا بعد ولادة حفيده الأول بُولْ. وكما لو كان الحلقة الوحيدة التي تربطني بهذه العائلة الغامضة، بعد شهور من موته، ها أنا ذي، آخذ قرار الانفصال...»

صوت اندلاق الماء في المرحاض، تلته نوبة سعال مزقت سكون الليل.

لطخة بنية أخرى على الصفحة الموالية، آثار سائل على الحاشية. أثر دمعة؟ استغربت، رسالة شخصية وحميمية، بهذه الأهمية، المفروض أن تُخبأ في مكان بعيد عن الأيادي والأنظار.

«...يا إلهي! كم هو معقد ومتشابك هذا الكائن البشري. دواخل الإنسان، هي أكثر المناطق ظلمة. لوقت طويل، تبجحت بمعرفتي تركيبة أي شخص من عينيه فقط، بل كنت أدعي أن النظرة الأولى تقول كل شيء، وأننا كلما اقتربنا أكثر، من شخص ما، نفقد قدرة الحياد، فيكون حكمنا خاطئا. صدَّقَتْ رفيقات الصبا ادعائي. كُنَّ يسألْنَني الرأي في رجالهن. الغريب أنني لم أخطئ إلا نادرا، خصوصا جوابًا عن سؤال يشغلهن أكثر: هل الرجل وَفِيٌّ أم خائن؟ هل هو مغرم أم مدَّعٍ؟

اعتمدت على هذا المعطى الحدسي الهش؛ لأختار دراسة علم النفس، وبنفس الحدس اخترتك أنت كزوج.

هل هناك سخرية أكثر من هذه؟

يبدو أن النظريات العلمية التي التهمتها طيلة سنوات، على مدرجات الجامعة، كان ينقصها الكثير من التجارب الواقعية والشخصية. غير أن ارتباطي المبكر بك، لم يترك لي مجال المماحكة وكشف الواقع. فأي نظرية معزولة، تصبح أداة صدئة لتحليل مجتمع ما. ثم إنني توقفت عن المواكبة والمشاركة في مؤتمرات طبية، في مجال تخصصي. تقوقعت في البيت، كرَّست نفسي لك وللأولاد. اكتفيت بنافذة واحدة، أطل من خلالها على الخارج، عيادتي، وما يصلني من قصص وحكايات مرضاي.

مرة، عُدتَ من إحدى رحلاتك الغامضة لألمانيا وأنت تحمل مجسما كبيرا لرأس سيجموند فرويد، وضعته على مكتبي، وقلت لي إنه رأس جدير بالتأمل. في العادة، وبعد أن توزع الهدايا على الأولاد، تقدم لي قارورة عطر. ما كان بإمكانك شراء هدية الزوجة بحضور العشيقات، فتكتفي باقتناء عطر من طائرة العودة. رغم أنني كنت أجد هداياك القليلة، غريبة وخارج السياق،كأن تهديني بذلة رقص شرقي، وأنا لم أرقص أبدا في حياتي، فقد استغربت تجشمك ثقل الرأس البرونزي. لم أفهم حينها أنك كنت تنبهني بل تسخر مني.

تماديتَ. تسترت خلف ندبة، حادث طفولي، رجة في الرأس، وعشت حَيواتِكَ الأخرى. متنقلا بين الأسِرَّة العابرة والمجهولة لاهيا عن التزاماتك العائلية وواجباتك الزوجية.

حتى ذلك السؤال: هل أحببتني؟ لم يعد له طعم ولا مجال.

كنتَ مُمَثِّلا بارعا، مقنعا لي ولمحيطك. وكنت من السذاجة أن صدقتك في كل ما ادعيتَ وعشتَ. حتى أسفارك المتكررة، ابتلعت حججها الواهية، كحضورك لقاءات ومؤتمرات طبية وهمية. أظل ألوك الغياب، أغير ديكور البيت، ملاءات السرير، طلاء الجدران، ألوان الستائر، أغير روتين البيت كي يليق بعودتك. أنبه الأولاد إلى سلوكات، قد تعكر مزاجك. وأتساءل بخوف، هل ستعود هذه المرة؟ فقد اكتشفت، بالمصادفة، أنك تخطط للالتحاق بامرأة في أستراليا.

كم كلمات حب أسمعتها للأخرى؟ ماذا أهديتها؟

والسؤال، الخنجر الذي كان يوجعني أكثر: ماذا كنت تقول للأخريات عني؟

مع الوقت، أقنعت نفسي بأن هامشا من الحرية سيكون علاجا لك، وابتعادك عن البيت سيجدد رغبتك فيه.

ليست هناك كلمات يمكن أن تصف ألمي، انكساري، قلة حيلتي، وأنا أُحضر حقيبة سفرك، أو أفرغها عند عودتك، فأجد مخلفات نساء بين ثيابك، فرشاةَ أسنان، مشطًا، شالا.. ما تمنيت لك شيئا، أكثر من أن تذوق ولو جزءا من ذاك الألم.

عشتَ حياة موازية. طبيب مشهور، بعيادتين واحدة في المدينة وأخرى في الضاحية. رب أسرة محترم. زوج منضبط أحسد عليه.

لست امرأة حقودًا، غير أنني حين سأطل على الموت، سأغفر لكل العالم، لكن من المستحيل أن أغفر لك. ليس لأنك خُنتَ، بل لأنك أرغمتني على خيانة نفسي وإهانتها حتى الإذلال، ومخاصمة ذاتي، ولأن جسدي لن يغفر لي أبدا.

هل كنت أطلب المستحيل؟ أنا المرأة البسيطة الرغبات، المحدودة الطموح، المطواع. عشت بأحلام صغيرة: أن تجمعنا كل مساء، غرفة صغيرة ودافئة. نشاهد التلفزيون، وأطفالنا يلعبون حولنا. غرفة بستائر سميكة، تحجبنا عن أهوال الخارج، وسجادة حليبية من الصوف الطبيعي. لماذا بالضبط من الصوف الطبيعي؟ لست أدري.

استعنتُ بكل نظريات علم النفس، بتجارب مرضاي، خيباتهم، نزواتهم، جموحهم.... لتشريح نفسيتك، بل لأجد سببا لحيويتك المبالغ فيها خارج البيت، وبرودك المستمر داخله، ومن ثم، أجهد نفسي في خلق أعذار تبرؤك.

صكوك الغفران التي كتبتها لكَ بدمي، كثرت. كنت كالشجرة، أنحني بظلي على الطفل المشاغب فيك، احدودبت الشجرة. وما كبر الطفل في داخلك.

كان الصقيع ينخر عظامي، يوما على صدر يوم، كنت أهوي في سحيق ظلمتي. فتشبثت بأول شعاع اخترق كآبة حياتي؛ لأملأ، على الأقل، فراغ الروح. أنتظر رسالة حب، يبعثها محب بعيد. لم تكن غير كلمات وألوان. لكنها أضافت طقسا جديدا لروتين يومي. أن أفتح علبة الرسائل الحديدية، المعلقة في المدخل الرئيسي، وأنا أغادر البيت كل صباح، وأحضن قطعة دفء.

قطعة الدفء، أصبحت ضرورة لاستمراري، في مسرحية حُشرت فيها حشرا...».

عند هذا السطر، تذكرت لوحة دالي المعلقة في الصالون. مررت على بقية الصفحات لأرى التوقيع. لم تكن الرسالة مذيلة بأي اسم.

ثم، لماذا تكتب زوجة لزوجها رسالة على الآلة الكاتبة؟

«.... هل كانت أريحية منكَ، أم تخفيفا من إحساس بالذنب، يخزك بين سرير وآخر، أن تتغاضى عن نزوتي الصغيرة، وتترك لي قطعة حلم أوقف بها الزمن لحين عودتك؟

هل كنتُ بهذا القدر من السذاجة حتى أتوهم وآمل في عودتك إليَّ؟ وهل كنتَ لي يوما؟ هل كنت حقا ساذجة طوال الوقت؟ هذا ما اعتقدته ولعشرين سنة مضت. والحقيقة أنني أنا كذلك، وبجبن، اختبأت وراء سذاجة لا تليق بطبيبة أمراض نفسية. وكما يفعل طائر النعام في الصحارى، خبأت رأسي في الرمل في انتظار أن تمر العاصفة.

قبل أن تنتهي العاصفة، سقطت ورقة التوت الأخيرة.

عدتَ أخيرا، بأشرعة ممزقة. فقدتَ جاذبية الدونْجوان. أطباء شبان بنظريات حديثة، التحقوا بالمدينة، تهاوت سمعة الطبيب الخارق، فتهاوى دخلك المادي، لم تعد قادرا على تلبية متطلبات عشيقاتك.

نعم، عدت لتعيرني، بتجاعيدي، بترهل جسدي. ونسيت أنني حين كنت أنا امرأة فتية وجميلة، لم تكن أنت رجلا.

كان اليقين أشد لظى من نار الشك. كانت العواصف قوية، ذهبت بالعش الذي بنيته سنوات بجَلَد وصبر.

فاض السر عن كأسنا. تبجُّحُكَ بفتوحاتك النسائية، عُرْفُ الديك على رأسك، هلوساتك، صوت البعير في داخلك، أشياء جعلتك تشرع حياتنا للملأ، دون اعتبار لي ولا للأولاد. تألمت كثيرا. كنت قد قتلت الأنثى بداخلي، وكنت سأتقبل الوضع. فقط، لو ظل السر بيننا. لأن صورة العائلة السعيدة المتوازنة، والزوجين المحبين، كانت تهمني أكثر من سعادتي.

ضغطت عليَّ كبرياء المرأة، حتى انفجرت.

ثم، سُمْعَةُ الطبيبة النفسية بدأت تختل في وسط الأطباء. كثرت الوشوشات.

هل يُصَدَّقُ؟ أنا المعالجة النفسانية، خريجة أهم الجامعات، دكتوراه بميزة حسن جدا، عن أطروحة طويلة وعريضة: «أزمة منتصف العمر عند الرجل»، أُعَنَّفُ وَأُخْدَعُ ويُغَرَّرُ بي؟

كيف أجلس خلف كرسي الاسترخاء كل يوم، أنصت لمشاكل الآخرين، أدخل أعماقهم، لأواجههم بخبايا نفوسهم، ثم أسمح لنفسي بتوجيه حيواتهم، وسلوكاتهم الجنسية، أنا التي فقدت بوصلة

حياتي، وخُدِعْتُ عمرا كاملا.

لا أنسى ابتسامة ساخرة لإحدى المريضات، وأنا أهدئ شكوكها وأُفنِّد حججها بقولي: إن زوجا يقوم بواجباته الزوجية بانتظام، من المستحيل أن تتعدى علاقته برئيسه الشاذ، أكثر من زمالة مكتب. وأن شكوكها مبالغ فيها.

كم من مريضة يا ترى، كشفت قصوري المعرفي وعماي؟

هل هناك سخرية أكثر من هذه؟

مَن سأضع في قفص الاتهام، أنت أم أنا؟ التعود؟ الحب؟ أم هو رُهابُ امرأة، من وحدة الخريف؟

وها أنا ذي، أخيرا، امرأة أخرى. ما عدت أخشى الضفاف المجهولة، أو أتوجس من علاقات لا تاريخ لها. تخلصت من غباوة مشاعر لم تغيرها الخسارات. أخرجت القلب من ظلمته. نفضته من أحزانه. أعدت للذاكرة كل بياضها. قطعت الحبل السُّري الذي ربطني بك زمنا.

كان والدي على حق: ليس هناك مبرر لإحساسي بالذنب. وأن أظل سجينة زواجي الفاشل؛ لأن والدتي هربت من زواجها وتركتني».

هزت الرسالة أوتار الألم في دواخلي. أَوَّاه، هذه امرأة أتقنت التعبير عن ألمها.

أحسست برغبة قوية للقاء هذه المرأة، فقط، لو كنت أعرف في أي عالم هي الآن. لمواساتها؟ أبدًا، بل لأحيي قدرتها على نزع اللحم عن العظم بأقل ألم. لأهنئها على حريتها، شجاعتها، فليست أي امرأة تستطيع أن تبرأ من سرطان نَخَرها طيلة عشرين سنة.

أغلب النساء، خصوصا مَن تربَّينَ على الخنوع، عشَّش فيهن الجبن والخوف.

الخوف من البدايات، من الورقة البيضاء، من رقم فارغ اسمه الصفر، من نقطة النهاية. غير مدركات بأنه بعد كل نهاية هناك احتمال كبير لبداية أجمل.

أعرف نساءً كثيرات، وضَّبن حقائبهن منذ زمن، ولم يذهبن إلى أي مكان.

تحدرتْ دمعة وشَقَّتْ طريقها نحو الشفاه، ذكرتني بعطشي. يبدو أنني انفعلت كثيرا بقراءة الرسالة حتى ارتفعت حرارتي.

العلية تتسع وتضيق، حسب إيقاع تنفسي. حين أزفر تبتعد الجدران، وحين أشهق تتقلص الجدران. أسمع دقات القلب بوضوح، ورقرقة الدم وهو يُضخ في الشرايين.....]

- مدام! مدام! من فضلك استيقظي.

يد تهزني. امرأة من بياض تـطل علي.

- معذرة مدام، اضطررنا لإيقاظك في هذه الساعة المتأخرة من الليل. توصلنا اللحظة بنتائج تحاليلك، ليست مطمئنة، الINR مرتفع جدا، ستة رقم غير عادي. سيولة دمك خطيرة. هل تسمحين لي بفحصك مدام؟

قلبتني طبيبة المداومة الليلية على كل الجهات. قاست النبض والضغط.

- هل لاحظتِ تغيُّرًا في البول هذا المساء، أحمر مثلا؟ هل رعفت؟ هل أحسستِ بِنَزْفٍ أو بألمٍ ما؟

كنت أحرك رأسي نافية كل أسئلتها.

- لا أظن أنهم أخطأوا في المختبر. على كل حال، سآخذ عينة أخرى من دمك وأرسلها حالا وسنرى. سأعود بعد لحظات للاطمئنان.

قبل أن تغادر الغرفة، ابتسمتْ لي قائلة:

نومك عميق جدا، هذا جيد في مثل حالتك. كثيرون يعانون أرق الليلة الأولى في المستشفى، رغم تناولهم المنوم.

في الخارج مازال المطر يتساقط بغزارة.

صباح يومي الرابع في المستشفى (صادف يوم السبت). وتماشيا مع سياسة التقشف التي تنهجها وزارة الصحة الفرنسية، تقرر إخلاء الجناح العلوي، نهاية الأسبوع. والاحتفاظ فقط بالحالات

الحرجة في الطابق السفلي.

فاجأتني إرمين:

- معذرة مدام، بقي لنا رجل مريض من الجناح الفوقي، نحن مضطرون لإعطائه الغرفة الانفرادية، وإلحاقك بغرفة مشتركة مع امرأة أخرى.لم أعلق، لا يمكن أن نحتج في بلد نتسول منه الحياة.

في طريقي إلى الغرفة الأخرى، كان هناك، في آخر الممر، رجل على كرسي أوتوماتيكي متحرك، تجاوز الستين، مثبت بأحزمة جلدية، يضع كمامة أوكسجين. أسلاك تربطه بآلة طبية، وقنينة سيروم معلقة فوق رأسه. يحرك الكرسي بعصبية ظاهرة وهو يستعجل الممرضة:

- مادموزيل، هل أستطيع أن أتسلم الغرفة الآن؟

عند باب الغرفة المقابلة توقفت مذهولة:

نفس الصوت المتسلط، بنفس تفخيم الراء، ومخارج الحروف بالطريقة الإسبانية.

كان الكرسي يمشي في اتجاهي، فتقترب رائحة مألوفة لديَّ، تجاوزني ودخل الغرفة. الغرفة التي قضيت فيها ثلاث ليالٍ بنصف عمر. المريض يشبه كثيرا رجل الحلم، لكن لم تكن هناك ندبة هلالية على جبينه، فلم أتحرَّ عن اسمه.

حيَّيت امرأة السرير المجاور. استلقيتُ على سريري الجديد. أخذت نَفَسًا عميقا. قبل أن تدخل إرمين. فقد حلَّت بيني وبين هذه الممرضة وبسرعة غريبة، ألفة ما.

وهي ترتب أغراضي في الخزانة مازحتني:

- المريض الذي استلم الغرفة من بعدكِ، منشرح ومرتاح عن الآخر. لقد أعجبه جو الغرفة، ويشكرك على بقايا العطر، الذي تركته وراءكِ، قال إنه شانيل 5. يبدو خبيرا بالعطور النسائية. سألني إن كنتِ جميلة، أكدت له ذلك، فعلَّق: النوم في سرير امرأة جميلة يطرد الموت.

ثم وشوشت في أذني:

- المسكين، حالته ميؤوس منها، أعرفه منذ سنوات. يأتي إلى المستشفى باستمرار. يكاد يكون ساكنا مداوما. متكتم جدا. غريب ووحيد. لا أحد يسأل عنه أو يأتي لزيارته.

في مساء اليوم نفسه الذي غادرتُ فيه مشفى سَالْبيتْرِيّيرْ، اقترح عليَّ كاتب (رواية جيرترود)، أن يُعرفني على البيت الباريسي الذي سكنته بطلته جيرْتْرود سْتَايْنْ وصديقتها أليسْ تُوكْلاسْ، ما بين1905 و1938. وكان صالونا وملتقى أسماء أدبية وفنية مشهورة، عاشت أو عبرت باريس في ذلك العصر الذهبي للأدب والفن الفرنسي والعالمي. وصلنا الدائرة السادسة. على بعد خطوتين من شارع سان جيرمان، جبنا الأزقة واحدا واحدا، بحثا عن زنقة دُو فْلوريس، حيث العمارة 27. تهنا، حتى وصلنا الجهة الخلفية لحديقة اللوكسمبورغ. عكسنا الاتجاه مرة أخرى. عيوننا ملتصقة بالأرقام واليافطات. فجأة وعلى لوحة نحاسية:

خوان رودريغو أميَّا(*******)

طبيب الأمراض العقلية

خريج جامعة ليما

الطابق الثاني بالموعد

تسمَّرت أمام مدخل العمارة القديمة، أعدت القراءة مرات. حتى أنني لم أسمع نداء صاحبي من الجهة الأخرى للشارع، فقد وجد أخيرا بيت جيرترود. أوقفني أمام باب البناية، كعمود متصلب، شاردة الذهن، التقط لي صورة للذكرى.

لم أسمع إلا شذرات من كلام مرافقي، وهو يتحدث عن بطلته جيرترود، وعن عمالقة الأدب والفن الذين وَطِئَت أقدامهم هذه العتبة، وكيف وظف الباب، والبيت الذي لم يدخله أبدا، في روايته وكيف... وكيف...

هل أعود إلى عنواني؟ هل أصعد الطابق الثاني لأتأكد؟ ماذا سأقول لمن سيفتح لي الباب؟ بسيطة، سأتحجج بطلب موعد مع الطبيب. لكن بماذا سأبرر لمرافقي حركتي هاته؟ لم أكن قد غادرت المشفى إلا هذا الصباح، حتما سيظن بي الهلوسة، إن أنا حكيت له عن البيت الذي يلاحقني.

ثم، هل يكون هذا الطبيب، هو نفسه صاحب بيت الليل؟ إنه نفس الاسم، الاسم الوحيد الذي لا أخطئه. نفس المهنة، مع اختلاف بسيط، صاحب بيت الليل، خريج جامعة مونبولي، وهذا خريج جامعة ليما.

حكَّمتُ العقل، أجلتُ زيارتي للعيادة إلى وقت أكون فيه وحدي. لكن الأيام التي قضيتها فيما بعد في باريس، كنت في رفقة دائمة بسبب هشاشة صحتي.

بعد شهرين من هذا الحادث، تلقيت دعوة لمدينة تور. تذكرة الذهاب والعودة عبر مطار أُورْلِي. المدينة لا تبعد عن باريس سوى ثلاث ساعات بالقطار. برمجتُ سفر العودة في آخر المساء؛ لأقضي يوما كاملا في باريس، قبل الالتحاق بالمطار.

وصل القطار القادم من مدينة تور محطة الأُوسْتَرْلِيزْ في الساعة العاشرة، تمشيت حتى بُولْفارْ دِي لُوبِيطَالْ، إلى مستشفى سَالْبيتْرِيّيرْ، تسلمتُ ما تأخر من نتائج تحليلاتي الطبية، وتقريرا مفصلا عن أيام استشفائي هناك.

كي لا أخطئ العنوان، وبلهفة الوصول، أخذت تاكسي من أقرب محطة.

توقف التاكسي عند ناصية زنقة دُوفْلوريسْ:

- إنها البناية الثالثة على اليمين، الاتجاه ممنوع، لا يمكنني وضعك أمامها بالضبط.

قال السائق معتذرا وهو يسلمني حقيبتي.

- لا بأس، أجبت السائق بارتياح.

من الجيد أن آخذ فرصة دقائق لتهدئة توتري، قبل مواجهة الحقيقة.

اتجهت إلى العمارة22. العمارة هي نفسها، لكن لم تكن هناك لا لوحة ولا اسم. اختفت اللوحة النحاسية التي رأيتها منذ شهرين تحمل اسم خوان رودريغو أميًّا. كانت هناك فقط، أربعة ثقوب ومربع صغير بلون رمادي كثيف، آثار يافطة ظلت طويلا هناك. صعدت السلالم المظلمة إلى الطابق الثاني. وجدت بابين متقابلين، الأول على اليمين، كُتب عليه مسْيُو إِمَدامْ هارُوشْ. ترددت قبل أن أضغط على جرس الباب الثاني، هو كذلك عليه آثار يافطة منزوعة. لم يفتح الباب.

فكرت، الصيادلة، هم الأكثر دراية بأطباء الحي، بحكم التعامل اليومي.

على بعد خطوات من العمارة. دخلت صيدلية تحمل نفس اسم الشارع «صيدلية دو فلوريس». مساعدتان تقفان خلف الكونتوار. بلا تردد، سألت الأكبر سنا، سيدة في حوالي الستينيات من العمر، خمنت أنها العارفة أكثر بالخريطة الطبية للحي.

- من فضلك، أسألُ عن الدكتور خوان رودريغو أميًّا، طبيب الأمراض العقلية، العمارة22.

فاجأتني بعدم معرفتها، أو حتى سماعها بالاسم.

استدرت مغادرة، قبل أن أخطو خارج الباب، سمعت صوتا باهتا من داخل المخزن، خلف علب الكرتون الممتلئة بدورها بعلب الدواء:

- الدكتور خوان رودريغو أميّا، تقاعد منذ أكثر من عشرين سنة.

دون أن أرى الوجه بوضوح، سألت الصوت:

- ألم تشتغل العيادة من بعده؟ أقصد، ألم يكن هناك طبيب في العيادة منذ شهرين تقريبا؟

- أبدًا، أجاب الصوت قاطعا.

طلبت دليلا تليفونيا، تتبعت الترتيب الأبجدي لجهة الأطباء، لكن الاسم لم يكن مدرجا في القائمة.

لم أفاجأ كثيرا، شخص ملتبس ومنفلت كصاحب بيت الليل، من البدهي ألا يعلن أو يشير إلى عنوانه وهاتفه في دليل عمومي. فقد قرأت في مكان ما، أن أفرادا من بعض الأقليات، ظلوا يمتنعون عن إدراج عناوينهم وأرقام هواتفهم في الأدلة، طيلة السنوات الأولى، بعد الحرب العالمية الثانية احتياطا، وربما خوفا. التجربة كانت مريرة، الجروح كانت طرية. فقد اعتمد الغيستابو كثيرا على الأدلة التليفونية لكشف أماكنهم.

قضيت ما تبقى من النهار على كرسي في حديقة اللكسومبورغ. أتفحص الوجوه، خصوصا المسنة منها.

تذكرت أنني لم آكل منذ إفطار الفندق بمدينة تور. التهمت سندويشا كاملا.

من بين الغيوم تسللت خيوط رفيعة من الشمس.

دونت في مذكرتي بعض السطور:

«ما هذا اللامرئي بين عالمين، الذي يجمع موتا بحياة في كأس واحدة، ونخب بلا رنين يُسمع، يجعل القبر ندا للسرير، يعطي القبر صفة الحياة، والسرير صفة الموت؟»(********)

غادرتْ آخر غيمة، اكتملت زرقة السماء. ساح ضوء جارح وأنار المشهد. تحركت مغادرةً نحو المطار. لم أودع أحدا غير شجرة الكرز الياباني التي كانت شاهدة على خيباتي.

لأول مرة، تودعني باريس مبتسمة.

Unescale à Madrid

عبور في مدريد

«جَرَّبْتُ كُلّ الطرقِ المُؤَديةِ إليكَ، أعْرِفُ،

أنتَ أعمى وأنا بِلا بَصيرَةٍ.»

ع.ب

لا شك أنني أحب باريس أكثر. لكن لديَّ عادة المقارنة بينها وبين مدريد. للمدينتين المقدار ذاته من الدهشة والشغف والذكريات. مدريد الدفء والفرح والاحتفال الدائم والقهقهات المرتفعة والجو الصحو. وبْلاسا دِلْصولْ، بْلاسا مايُّورْ.... السماء في مدريد أكثر وضوحا منها في باريس، وأقل إغراء.

باريس الرومانسية الباردة والسماء الرمادية. صقيع المحطات. حميمية المكتبات. السير تحت المطر.. برج إيفلْ، مُونْبارْنَاسْ وكنيسة القلب المقدس، الحي اللاتيني... مدينة مندهشة، خارجة للتو من أرشيف التاريخ. تخال أنك بين زقاق وآخر، ستصادف كل من قرأت لهم من كتاب

فرنسيين، وكذلك من عبروها من متسكعي الأدب العالمي، وسيحدث أن شخصية روائية ما، بصمتك، سترفع قبعتها وتحييك.

لو خُيرتُ يوما بينهما سكنا، لاخترت باريس. المدينة التي تأخذك إلى الضياع فيها بوعي كامل بأنك ستخسر كل مدنك ومرافئك الأخرى، دون أن تكون هي مدينتك ومستقرك. تدرك منذ أول خطو لك في المطار أنك خاسر وضائع ومُغَرَّرٌ به، ومع ذلك تمضي إلى حتفك، كرجل يسلم كل أسلحته إلى امرأة لعوب.

هي مقارنة عاطفية ليس أكثر.

الرابعة بعد الزوال، نزلت الطائرة في مطار باراخاس. ليس عليَّ أن أنتظر الحقائب، أحمل معي ما قل ودل في حقيبة صغيرة، أخرجت منها خريطة ميترو مدريد. أحتفظ دائما بخرائط المدن التي أزورها.

عليَّ أن أقضي يوما وليلة قبل أن أستقل طائرة مدريد - سان خوسيه، المغادِرَة في الساعة الثامنة ليلا. أُفضِّل أن أقطع هذه المسافة المائية الطويلة وأنا نائمة.

بدت لي خريطة الميترو معقدة، عليَّ أن أغير في محطتين قبل الوصول إلى أَفينيدَا دي ميكْسيكُو. تخليت عن الفكرة. وقفت أنتظر دوري في محطة التاكسيات. لا بأس، عشرون أورو سعر معقول لأصل إلى هدفي دون لف. رغم صغر الحقيبة، فهي تبقى عائقا للتحرك بين الميتروات.

استأنست قليلا بدردشة السائق ذي اللكنة الأندلسية. يبدؤون دائما بحالة الجو لينتهوا بسؤال رئيسي: هل السيدة سائحة أم...؟

الإسبان شعب ودود لكنهم ثرثارون. يقتحمونك بدون استئذان. مثلنا نحن العرب. عدت للمقارنة. سائق التاكسي في باريس لا يتعدى سؤاله: إلى أين تذهب السيدة؟ إن زاد عليه فهو إما جزائري أو مغربي.

الجو ربيعي ودافئ.

احتكاك الضوء وسطح الخضرة يشرح النفس.

تطلعت إلى الشجر المزهو على جنبات الطريق. أبريل شهر لائق للاستمتاع بزيارة مدريد.

بعد عشر دقائق. كان التاكسي يدخل الطرف الشرقي لمدريد؛ ليصل في لحظات وجيزة إلى زقاق كُوراسونْ دي لا فيرْخينْ. حيث يوجد باب المرآب والحديقة الخلفية للفندق. تقدم نحو أربعمائة متر، وأنزلني أمام الباب الرئيسي:

- أتمنى لك مقاما طيبا سيدتي. بَاسِيُّو دِي لالُونَا اختيار صائب. أتعامل كثيرا مع زبائن هذا الفندق. أنا رهن إشارة السيدة. يمكنك الاعتماد عليَّ في أي وقت.

قال السائق وهو يقدم لي بطاقة عليها اسمه وهاتفه.

استلمتُ حقيبتي وأنا أشكره بحماسة، بررتها باستشراف رحلة مغامرة جديدة. قررت قبل مغادرتي للبيت أن أستمتع بكل لحظة دون ألم أو ندم أو الالتفات للوراء. طيلة العشرين يوما التي سأقضيها في كوستا ريكا.

حين نعبر بحرا، تعمل الذاكرة على رَكْنِ كل العواطف والصور لأحبتنا في رف من رفوفها، ينفتح تلقائيا عند العودة. هذا ما علمني إياه صاحبي في أول سفرة لي خارج البلد، حين انساب دمعي شوقا لأولادي. ثم إن نسبة خمسة وعشرين في المئة من حياتي، والتي أنتزعها لنفسي انتزاعا في السنوات الأخيرة، لا تضر أحدا. بل تعطيني القوة على الاستمرار. والعودة بصدر أرحب.

فندق باسِيُّو دي لالُونا مجمع للمعمار العالمي القديم، شارك في تصميمه معماريون مرموقون من بلدان مختلفة. يتألف من ستة عشر طابقا، كل طابق له تصميم وديكور خاص يعرف بالطراز التقليدي للبلد: صيني، ياباني، إيراني، أمريكي، فرنسي، مغربي، إنجليزي، ميكسيكي، إسباني... كأنك تدخل متحفا.

في الاستقبال تُقدم المضيفة كاتالوغًا بصور الغرف وأسماء مصمميها وتعريفًا بتاريخ الأسلوب المعماري للبلد الذي ينتمي إليه المصمم.

يستطيع الزبون أن ينام كل مرة في بلد مختلف. في مرة سابقة، تمت استضافتي في هذا الفندق، واخترت غرفة ذات تصميم معماري إيراني.

أشَّرْتُ على الغرفة اليابانية السوداء. طابق غير المدخنين.

كانت الساعة تشير إلى السادسة حين استلقيتُ على السرير الأسود الياباني الواسع. بعد أن أزحت الستائر لأُؤَثِّثَ ديكور الغرفة بقطعة من سماء زرقاء.

أمامي بعض الوقت لأرتاح قبل أن أخرج في جولة قصيرة إلى غرانْ فيَا ومنه إلى بْلاسَا دِلْسُولْ. وإذا ظل الجو صحوا، أعرج على بْلاسَا مَايُورْ، هناك الكثير من المطاعم المختصة في لاسْ طَابَّاسْ مُفَضَّلاتي في المطبخ الإسباني، وما يكفي من الفرجة في الساحة.

قدَّرتُ أنني سأعود إلى الفندق الساعة العاشرة، وأنام باكرا. عليَّ أن أستغل الست ساعات غدا لأزور الحد الأدنى من المتاحف قبل الالتحاق بالمطار.

بدأت في برمجة الزيارات، حسب الأولوية، والقرب أو البعد عن بعضها. حتما سأبدأ بالمعرض المقام للفنان الفرنسي كلود موني. قرأت خبرا عنه في جريدة وأنا على متن الطائرة. لأول مرة ومنذ سنوات، تعرض له ثلاثية القنطرة اليابانية بأجمعها، وهو ما لا يحدث إلا نادرا. بعد ذلك سأقوم بجولة سريعة في متحف لارِّينا صوفيا، ثم متحف تايسن بورنميسَّا، وأختم بمتحف ديلْ برادو. تواجد هاته المتاحف في نفس المنطقة يسهل الزيارة... ثم كبس عليَّ النوم.

[... أتساءل إن كان كل ما أنا فيه مجرد حلم يتكرر، أجد نفسي مجددا في عتمة هذا البيت الكبير، الذي يجعلني أحس بأنني سجينة جدرانه؟

لم يتغير شيء في العلية سوى اختفاء الكرسي الهزاز. واتضاح باب خلفي للعلية، اعتقدته سابقا خزانة جدارية، نظرا للتمويه المقصود بطلائه من نفس نوع ولون طلاء الجدران.

أنتظر أن يصلني، في أي لحظة، صوت أمي مناديا، غاضبا:

«أين أنتِ؟ هل عدتِ مرة أخرى إلى هناك؟ ما الذي يعجبك في مخزن النفايات ذاك؟ انزلي، لم تكملي بعد جلي الأواني. لو أعرف يوما ماذا تفعلين طوال الوقت في تلك العلية. ألم تقل لك جدتك إن الأمكنة المهجورة والمظلمة تسكنها الأرواح الشريرة. قد يَلْبَسُكِ جني وتفقدين عقلك».

الجدة دائما على حق، فقط لو كانت تتوفر على القليل من منطق السبب المسبِّب، كأن تعي أن

العزلة ممر يفضي إلى الجنون، وإلى صفاء الذات أيضًا.

لم أستطع مقاومة فضول ينتصر دائما على خوف يُرجف مفاصلي، فأستمر في النبش.

لماذا أرسل هذا الألبوم إلى العلية مع الخردوات؟

وأنا أفتحه، غمرني إحساس قَلِقٌ من اكتشاف شيء ما سيُحزنني أو يغضبني. كانت صورا عائلية، الجزء الأول منها بالأبيض والأسود. تبدأ بصور لحفل زفاف. أخرى لحفل تعميد مولود، ثم حفلات أعياد ميلاد.. توالت الصور لمناسبات متشابهة. صور تذكارية التقطت في أماكن مختلفة من العالم. أغلبها على شواطئ أو فوق قمم جبال مكللة بالثلوج. يبدو الابن الأكبر لهذه العائلة من هواة التزحلق على الجليد. ربطت ذلك بالميداليات والتروفيات وأدوات رياضة التزحلق على الجليد في غرفته. عدتُ لتأمل صور حفل الزواج، الطقوس غريبة تماما عن زواج كاثوليكي فرنسي، لم تكن العروس ترتدي فستانا أبيض كما هي العادة، بل فستانا غامقا. خيط حريري يربط بين إبهامي الزوجين وإكليل معلق في الوسط. العروس جميلة، شقراء ونحيفة جدا، نحافة تشي بتكور بسيط للبطن، عينان تتدفق منهما الحياة. بياض شفاف جدا إلى حد رؤية خريطة العروق على جيدها الطويل وعمق الترقوتين. شعر مشط إلى الخلف على شكل شينيون، ترصعه فراشات وأزهار لوز. أناقة وبساطة ظاهرة. على خلاف العريس الذي يبدو متكلفا بِسْموكِينْغ أسود وقميص أبيض، ربطة عنق على شكل پاپيُّونْ. يبدو شابا نحيلا في نهاية العشرينيات. عينان سوداوان وشعر أسود مسبل على الجبين.

سعادة غامرة تحلق فوق الحاضرين. استطعت أن أَتَعَرَّفَ وجها بين الحضور، رغم الذبول والصلع الذي طال الرأس، فمن المؤكد أنه صاحب الصورة المعلقة فوق مدفأة الصالون. قد يُغَيِّرُ الزمن ملامح وجه ما، لكن العينين تحتفظان بنفس النظرة واللون.

صوت محرك قوي اخترق سكون الليل، انتشرت رائحة كريهة. يبدو أنها شاحنة جمع القمامة في دورتها الليلية.

عدت لتأمل الصور. الجميع كان ضاحكا وسعيدا، سعادة تكاد تتدفق من الصور. إن كان لي أن أُعَنْوِنَ هذا الألبوم، لكنت اخترت: تأريخ لعائلة سعيدة. فالألبوم كان فعلا تأريخا للعائلة مع توالي التحولات والمراحل التي مرت بها. يبدو أن العائلة سكنت أول الأمر في شقة صغيرة. صور الولد البكر وهو رضيع ينام في مهد من القصب في غرفة ضيقة، أو يستحم في إناء من البلاستيك.

بخلاف صور البنتين وهما تستحمان في مغطس حمام واسع أو تلعبان في حديقة البيت الواسعة. نفس البيت الذي أنا موجودة فيه الآن. الواضح أن العائلة في هذه المرحلة أصبحت ميسورة، إلى حد ما، فهندام المرأة التي تُؤرجح الطفلتين يدل على أنها مربية متخصصة. إضافة إلى الدراجات والألعاب الكبيرة المكلفة.

أصخت السمع: صوت امرأة تهدل لرضيع كي ينام.

في آخر صورة من الألبوم، يبدو الولد مراهقا، نسخة من والده. الطفلتان بمرايل مدرسية، شقراوان، قريبتا الشبه بأمهما لولا عيونهما السوداء. الكبرى تقف بجانب أخيها وراء الأبوين الجالسين، والصغرى بينهما، مسنودة لركبة الأب. كانوا ملتصقين ببعضهم، الأذرع تَشُدُّ بعضها من الخلف، العيون محدقة في العدسة، غير أن عيني المرأة كانتا ترسلان نظرة خاصة، دافئة، بل نظرة وَلَهٍ.

مَن الشخص الذي كان خلف كاميرا التصوير؟

ابتسامة تآلُف بين الجميع. خلفية الصورة، سماء زرقاء وصافية، لا غيمة تطل منها.

الصورة وحيدة في آخر صفحة الألبوم، كما لو أنها وضعت عن قصد، نقطة ختام لآخر الحكاية.

أحسست بعياء كبير، كأنني عشت حياة طويلة استنزفتْ قواي. أغمضت عيني، حاولت أن أنام كي أغادر الحلم وأُوقف زمنا افتراضيا. لكن صوتا آليا قادما من جهة الحديقة لم أسمعه من قبل، كان يتكرر كل نصف ساعة تقريبا ويوقظني كلما غفوت. خمنت أن يكون صوت مولد كهربائي.

تكون العودة من الحلم دائما أصعب من سابقتها. إحساس بأنني على حدود كل الأشياء... على حدود حياة، في المابين، حيث يصعب التمييز والاختيار. وأنه كلما ابتعدت ستكون العودة أصعب. ففي قرارة نفسي أريد العودة لعالم لا أذكره.

شبهت الحالة بعرض مسرحي كنت قد حضرته لشاعرين على مسرح ببالما مايوركا: الأول كان يجلس على أريكة منفرج الساقين، يقرأ شعرا يحتفي بولادة قصيدة، بينما الشاعر الثاني مقرفصًا تحت رجليه يجذب شيئا لا مرئيا من بين فخذيه، مُجَسِّدا لحظة ولادة عسيرة. هكذا يكون تنقلي بين عالمين منفلتين معا، لا كلمة في القاموس الإنساني يمكنها الدلالة عليهما. أَعْبُرُ من

عالم إلى آخر، كشخص يعيش في سنة 2012 يتفرج على شريط بالأبيض والأسود، أو يستمع لأسطوانة قديمة.

سعال يمزق رهافة الصمت. أقفز من مكاني. أنسى أن السقف واطئ ومنحرف. أقوم فيرتطم رأسي بسقف العلية....

أجراس كنيسة تدق. صوت هرج ومرج. أبواب ومصاريع تغلق وتفتح. ارتطام أوانٍ.

ضوء النهار.

انتفضتُ، ما حدث أن وجدتني في هذا البيت نهارا. انزعجت لشيء لا أدركه. كأنني خرقت اتفاقا ضمنيا مع البيت: أن أغادر قبل مطلع الشمس. أو كأنني خنت الظلمة لصالح الضوء.

أرقتني فكرة أن شيئا ما حدث وأنا نائمة. في الغياب تنفلت الخيوط. بالضبط في تلك الساعة أو الدقيقة أو الثانية تحدث أشياء تغير مجرى حياة.

شيء رهيب في الطريق إليَّ.

رأسي يؤلمني، تحسست تكورا على مستوى الجمجمة.

ما قضيته من وقت، بين منتصف الليل وطلوع النهار، كان إغماءً وليس نوما.

رائحة القهوة والخبز المحمص.

الأصوات تبتعد وتقترب، بقايا ذبذبات صوتية، احتفظتْ بها الجدران، لمن عبروا هذا البيت.

صوت رخيم وهادئ بلكنة أهل الجنوب الفرنسي. صوت ضعيف ومعطر، تسمعه فتدرك جمال صاحبته دون أن تراها. تفهم أنه لامرأة رقيقة الإحساس، وهشة إلى درجة الانكسار. امرأة سريعة العطب.

- إلى المائدة أيها الأطفال.

بعد دقائق ارتفع نفس الصوت مناديا فارتفع رد الصدى في الفراغ المهول للبيت:

- بُولْ، نيكول، إلين، انزلوا الإفطار جاهز... ستتأخرون عن الحافلة، وسأضطر لمواجهة تقريعات مدام كلوني ودروسها عن واجب الوالدين وما جاورها من مواعظ عن الانضباط واحترام الوقت لتنتهي بمبادئ الثورة الفرنسية...

تدريجيا يضيع الصوت في الفراغ. برهة قصيرة ويعود المكان إلى ما كان عليه.

من داخل الحلم، تساءلت، هل تَهَوَّرْتُ ودخلت البرزخ؟ ذلك العالم الذي كانت تحدثنا عنه الجدة وهي تستعرض قوتها الحدسية:

«من علامات موت قريب، أن تتداخل عوالم الأموات والأحياء، تُتبادل الزيارات، والأحاديث، والهدايا كطقوس عادية. عالم تتعايش فيه كل الأجناس والأديان والمعتقدات وكل اللغات. يحشر فيه الناس حفاة عراة».

أطلَلْتُ من نافذة العلية. شفق خجول يتسلل تدريجيا ويمسح سواد السماء قطعة قطعة. دخان يتصاعد على بُعد أميال. مخبزة بالقرب، كما خمنت من رائحة الكرواصان الطازجة. مَدافِئ البيوت تتسامق بلا دخان. أعشاش لقالق فارغة. أعمدة للالتقاط التلفزي. ألواح لامتصاص الطاقة الشمسية فوق بعض الأبنية. سطوح الدور واطئة من القرميد بمختلف الألوان، الطيني، الأخضر، الأزرق، وحتى البنفسجي الغامق. البيت في حي راق، في أطراف مدينة ما، فالحدائق واسعة والمسابح كبيرة.

كْواكْ !كْواكْ! وينطلق سرب كثيف من الغربان السوداء.

انقشع النهار بكامل ضوئه. نسيم بحري بارد ذكَّرني بأنني لا أرتدي سوى منامة خفيفة. سحبت رأسي إلى الداخل.

الأكيد أن الحلم قد طال هذه المرة، حتى نسي وعيي أن يستعيدني قبل طلوع النهار. قَدَّرْتُ أنني نمت أو غبت خمس ساعات، لكن إحساسا في داخلي، يُشعرني بأنني بقيت هنا لسنوات.

ينحرف تركيزي عن الأشياء نحو الجدران. الباب الخفي بلا مزلاج. أتحرك بدون أدنى فكرة عما

سأصادفه. أمشي المتاهة، يقودني فضول قاتل.

فجأة تَكَشَّفَ لي حس غامض بمعرفة مسالك البيت. خطوات رزينة تقودني، دون أن أتعثر أو أصطدم بشيء وأُسقطه من مكانه.

صمت أبيض.

مُتَوَجِّسًا مِنْ حَدَثٍ ما، تباطأَ الزمن في دمي.

صوت المنبه. مرة أخرى سعال كثيف وصراع من أجل إخراج البلغم. وقع خطوات، وصوت رشاش ماء. أحد ما يأخذ حمام الصباح. الأصوات تتردد في داخلي بدل أن تتردد في المكان...

صوت مذيع يُعلن عن أخبار الساعة الثامنة صباحا، فلا تصل من أخباره إلا شذرات. جلبة الأواني وتصادمها العصبي، يقطع الجمل إلى كلمات مبهمة. رنين الهاتف الملح ألغى كل الأصوات الأخرى. ثم صوت مشحون بالغضب والتسلط:

- هل هذا معقول؟ اسمعني يا أستاذ، حاول أن تركز معي قليلا.

- (.......)

- أنت محامٍ، وتعرف أكثر مني، أنه لا يمكن للقاضي أن يحكم لصالحها، لمجرد أنها قدمت تقريرا طبيا لحالتي النفسية.

- (........)

- رجاءً أستاذ دعني أوضح لكَ الأمر...

صوت سقوط ملعقة وارتطام صحن بالأرض. ارتفاع حدة الصوت توحي بأن المتحدث في الطرف الآخر تفوَّه بكلام صادم.

- ما هذا الخراء؟ هل نسي القاضي أنها طبيبة نفسانية وأنها الخصم؟ تمنعني من رؤية أطفالي لعشر سنوات، بتقرير طبي مجحف، ثم تأتي اليوم لتأخذ بيتي.

- (.........)

- هذا البيت مقابل البيت الصيفي قسمة عادلة، البيت الصيفي أغلى لأنه في منطقة سياحية.

هذا ما اقترحته عليها سابقا.

كلما ارتفعت حدة الصوت وازداد غضب الرجل، ازداد اهتزاز الكرسي القصبي المركون تحت سقيفة الحديقة وارتفع نباح الكلبة.

- لن أتنازل عن بيت عائلتي، فلتذهب إلى الجحيم. ما هذا الانحطاط الذي وصل إليه القضاء في عهد هؤلاء الاشتراكيين؟

ثم صوت ارتطام الهاتف بقوة أوصلته إلى الطرف الآخر من الحديقة بخيوط مقطعة.

ضربٌ على الطاولة. خُطى مجنونة تقرع الأرض بعنف، تتنقل بين الغرف. في نفس اللحظة تناهى إليَّ صراخ الرجل قادما من الجهة الأمامية للبيت، انتقلتُ إلى النافذة المطلة على البهو، اصطدمت عيناي بمشهد غريب. رجلٌ عارٍ تماما، يلف الباحة مهرولا، مرجحا يديه إلى الأمام وإلى الوراء. تتبعه الكلبة، ينهرها تارة، ويوجه لها الكلام تارة أخرى:

- ماذا تريدين إرمين؟ الأولاد؟ أخذتهم أيتها المشعوذة. البيت؟ عليكِ أن تمري فوق جثتي أولا. لكن قبل ذلك، سأنتقم منكِ، بل من كل الذين حرضوك ضدي، أصدقاؤك، منظروك، أعرفهم واحدا واحدا. ماذا تظنين؟ أنني لم أفطن للعبة منذ البداية؟ سأحرقهم جميعا، سأبدأ بذلك المعتوه فرويد أولا..

سرب صغير من الخطاطيف يدخل الفناء. يصطدم خطاف بزجاج النافذة، ويسقط أرضا.

أرتعب من بصمة الدم التي تركها الرأس الصغير.

بالرجل العرجاء يسحق الرجل عظام الطائر النافق.

يحتقن وجهه، تنتفخ أوداجه، ينحني ليجمع القش وأوراق الشجر اليابسة ويضعها في البَارْبيكْيُّو الطيني. تظهر ندوب أخرى على رسغه، آثار قطع شرايين. يهذي بكلام أقرب إلى الصراخ:

- لن أترك أحدا منهم، لقد حذرتك من قبل. إلا البيت يا إرمين، إلا البيت.

اختفى في الداخل برهة، ثم عاد يحمل مجموعة من الكتب القديمة. سكب البنزين، ثم أشعل

النار:

- سأريك ماذا سأفعل بأولاد الزنا هؤلاء.

بدأ يرمي الكتب واحدا واحدا، وكما لو كان يَتْلو صلاة جنازة على مؤلفيها، عَدَّدَ لكل واحد نظريته

(..........)

- ما الذي يفقهه في النفس البشرية هؤلاء المدَّعون؟ خُنْتُ، نعم خنت مرات قليلة، كانت نزوات عابرة، وماذا بعد؟ بشكل أو بآخر، كلنا خونة. ومتى كانت الخيانة مرضا وجنونا؟

يخرج من بين الكتب رسومات ورسائل يمزقها، يرمي المزق لألسنة النار:

- ما الذي يفعل صديقكِ الرسام المخنث في رسائل الغرام التي يبعثها إليك باستمرار، غير الخيانة. سأخبر زوجته. سأفضحه في الجرائد، وأجعل ذلك المبدع العظيم، قزما أمام الناس. سأحرقه وأحرق مرسمه، ثم أكسر أصابعه واحدة واحدة، وأطقطق عظامه حتى لن يقدر على مس فرشاة لرسم زوجات الآخرين، هل يعتقد أن الألوان تُخفي الخيانة؟ كل إبداع هو خيانة، حتى ولو كان على الورق.

ينخر، يتمخط في يده.

توقف ليتأمل اللهب والشرر المتطاير.

الآن أستطيع أن أراه بوضوح تحت ضوء النهار. الرجل نفسه الذي التقيت به ذات عبور في مطار عمان، وهو نفسه من رأيته صحبة المرأة الضئيلة في غرفة النوم، في هذا البيت ذات حلم. لكنني الآن أستطيع أن أميز ملامحه بدقة. رجل في الخمسينيات، شعر أشيب، لحية خفيفة بيضاء. عينان ضيقتان وانتفاخ ظاهر للأجفان. أنف دقيق. شفتان رقيقتان متيبستان. مربوع القامة. بطن كبير مندفع إلى الأمام، يكاد يُسقطه على الأرض كلما أسرع في الحركة. أثر عملية جراحية على الجانب الأيسر، من أسفل البطن إلى أعلى الصدر. أوردة بارزة. ندوب كثيرة. شعر كثيف على مستوى الصدر والذراعين. مزيج من الملامح العربية والأورُبية. مسحة الإعياء، التجاعيد العميقة والهالات السوداء المحيطة بالعينين تشي بآلام شرسة التهمت طراوة الشباب، وسَرَّعَتْ شيخوخة

هذا الرجل الذي يبدو أنه كان وسيما في شبابه.

عجزتُ عن تخيل ذلك الرجل العاري، الغريب الأطوار، ببذلة طبيب كما هو مدون على الوصفات الطبية فوق المكتب. يبدو بيديه الخشنتين وأظافره الوسخة أقرب إلى رجل يشتغل في البناء أو تزفيت الطرق أو في الفلاحة.

وكمن تذكر بقية كلام:

- أيتها البلهاء، لن يتركَ زوجته من أجلكِ، لن يتزوجكِ، لسبب بسيط، أنك لست من عرقه. الدم، العِرْق يا إرمين. أنتِ لا تدركين ما معنى ألا يكون دمك أزرق أو بلا لون، يعني أن تعيشي بلا وطن، بلا أرض، بلا بيت، بلا رجل يحميكِ. أشفق عليك، أشفق عليك من نظرات التشكيك في المحافل والمجتمعات، في المطارات ونقط التفتيش. أشفق عليك.

ثم هامسا لنفسه:

- لا أحد سيعطيكِ ما أعطيتكِ. لا أحد منهم سيدعوك لحياته، ويُسكنك بيته، حتى ولو أسكنك قصيدة أو لوحة، لن تتعدى علاقتك بهم أكثر من ثلاث مواعدات ويتركونك. سهل أن تكوني حبرا على ورق، أو صورة من ألوان، لكن لا أحد سيذكرك أنت الإنسانة من لحم ودم. وستخرجين من هذه البركة الآسنة التي تُسمى الوسط الفني، مثخنة بالجراح، تحملين كل خيبات الدنيا...

ثم رفع رأسه للسماء بنظرة ضارية وضارعة في نفس الوقت:

- يا ألله اجعل تلك الحمقاء في جحيمك الأبدي؛ لتذوق ألم الفراق؛ لتتعفن في الوحدة والإهمال.

في تلك اللحظة ميزت نَدَبَة هلالية الشكل على أيسر الجبين. حجمها وسمك نتوئها يدلان على سقطة أو اصطدام قوي حدث منذ زمن بعيد. تساءلت إن كانت تلك الحادثة قد ذهبت بجزء من قدراته العقلية. وإن كان ذلك يرجع إلى زمن الطفولة. سقطة جعلته سجين حقبة معينة من حياته، فكان له نفس مصير بطل الشريط الياباني «موسم الجوافة»، «أُوُّوَّا» على ما أذكر.

هناك بعض التشابه بين الرجلين. حاستي السادسة المُدَّعِيَّة، جعلتني أربط بينهما.

في سن الثالثة عشرة، سقط «أوُّوَّا» من أعلى شجرة جوافة في الحديقة. منذئذ توقف الزمن في

داخله. ظل يعتقد أنه مازال يسكن بيت طفولته الذي أممته الدولة وانتزعته من عائلته منذ سنوات. فداوم على اقتحام البيت، كلما نضجت ثمار الجوافة؛ ليتعرض للتعنيف من سكانه المتجددين، ويُعَرِّضَ أخته المسؤولة عنه للمساءلة في قسم الشرطة.

رجل البيت كذلك، له سمات رجل مريض أكثر من طبيب.

ربما أخطأتُ الحكم، فعادة ما أُضخم الأشياء والأحداث، فتأتي الخلاصات كثيرة الشطط والمبالغة.

- خْوَانْ!خْوَانْ! هل أنت بخير؟

صوت متعب لامرأة تنادي من الحديقة الخلفية.

في رمشة عين، وكمن أفاق من نَوْمَةٍ، استعاد الرجل هدوءه وكفَّ عن الصراخ. مسح ما سال من لعاب على ذقنه ودخل البيت.

تحولتُ إلى النافذة المطلة على الحديقة، حيث مصدر الصوت، في اللحظة التي خرج الرجل مرتديا غندورة زرقاء، مغربية أو جزائرية، لكنَّ رجليه مازالتا حافيتن:

- وِي..... جَرِيفْ.

خلف السياج الشائك، بين الأشجار، امرأة ستينية بوجه دائري بشوش، تضع قبعة شمسية وقفازات للحماية من الأشواك. تحمل مقصا لتشذيب الأغصان.

- هل أنت بخير؟ سمعتكَ تصرخ.

لسببٍ ما حرَّفَ الأحداث:

- إنها الكلبة الملعونة مرة أخرى.

- نصحتُكَ مرارا أن تأخذها إلى الطبيب البيطري عند ناصية الشارع. ربما أصيبتْ بالإسهال. أنتَ تغيب طويلا عن البيت، هي تجوع وتأكل من الفضلات. كيف تعامل كلبة من فصيلة اليوكي هذه

المعاملة؟

قاطعها الرجل:

- لو كانتْ كلبا، لتصرفت بلياقة أكثر، اللعينة.

- كلما سمعتك تتحدث عن أنثى، أشك في نقاء دمك.

ثم بمزاح لا يخلو من عنصرية:

- هل أنت متأكد أن والدتك كانت فاضلة؟ ألم تكن لها علاقة برجل عربي في يوم من الأيام؟

بدا الارتباك على ملامح الرجل. حك قفاه بعصبية، فطنت الجارة فحولت الحوار:

- هل أنهيتَ تنظيف المسبح؟

- نظفته منذ أيام، وشَغَّلْتُ مضخة الماء أمس. سيكون ممتلئا في الغد، إذا لم يتوقف هذا المحرك الخرا. لقد لمعت المائدة والكراسي، وتبث الهمايْكا تحت السقيفة. أتمنى أن يكون كل شيء جاهزا نهاية الأسبوع. الأولاد يحبون تناول غداء الأحد بجانب المسبح. إيلين لا تمل السباحة حتى ونحن على المائدة. كم كنت أجهد لأطعمها وهي لاهية برش الماء على الجميع. هذه المرة سأجعلها تأكل صحنها كاملا، بنيتها ضعيفة ووجها مصفر على الدوام. أتذكرين حين كانت رضيعة، غافلتنا وخرجت من غرفتها وهي تحبو وسقطت في المسبح. لولا أنني خرجت في اللحظة المناسبة لكانت قد غرقت. بعدها مباشرة أحطت المسبح بالسياج...

- خْوانْ! خْوَانْ!

كما توقظ نائما، ألحت المرأة منبهة:

- الأولاد ما عادوا أطفالا، أصبحوا الآن رجلا وامرأتين.

عادت إلى تشذيب الأغصان، أطلقت تنهيدة طويلة متمتمة:

- آه يا عزيزي خوان، كأنه كان من الأفضل لوالديك الطيبين الموت، قبل أن تبلغ هذه الحالة من الهذيان. من كان يتخيل أنه بعد عشرين سنة، تتسلل الزوجة والأبناء من بين شقوق الحياة ويتوقف عندك الزمن بهذا الشكل المريع.

استرخى الرجل على أرجوحة بمقعدين، نَطَّتْ الكلبة وجلست قربه.

باستسلام أحنى رأسه، مسد فرو الكلبة، وكمن استدرك:

- جحود الأبناء، مأساة العصر. صحيح ابتعدوا، وكلما طال البعد أصبح البيت دغلا واسعا. ربما لم يعودوا في الحاضر، هذا شأنهم. لكنهم حاضرون في مشاريع المستقبل. قد يأتي الأحفاد..... ثم لا تنسي أن أمهم شحنتهم كراهية ضدي منذ كانوا صغارا. ليس الذنب ذنبهم.

اختفى داخل البيت تتبعه الكلبة، بينما ظل الكرسي الهزاز، تحت السقيفة، يتحرك بإيقاع رتيب. دون أن يَسقط العكاز الأبنوسي المسنود عليه.

ما الذي جاء بهذا الكرسي من العلية، وأخرج العفريت من القمقم؟

يُسمع صوت إغلاق الباب الخارجي. تعود الكلبة لتقعى عند أسفل الكرسي. ترفع رأسها نحو النافذة، من حيث أُطل، تنظر إليَّ دون استغراب، كأنني شخص مألوف لديها، أو كأنني من ساكني هذا البيت. هي التي تنبح كلما رأت غريبا أو حتى عند سماع جرس الباب أو رنين الهاتف. بل كانت تحدجني بنظرة غريبة كلما رأتني، نظرة تكاد تنطق «أعْرِفُكِ».

لم أَلْتقها ولا مرة مربوطة برسن، بل تدور وتحوم بين الغرف والحمَّامات بخيلاء، تنام على الأرائك والأَسِرَّةِ. حتى بِتُّ أظن في لحظات التباس، أنها صاحبة البيت الوحيدة.

تنفض عن جسدها ما علق من قطرات ماء وتنام بهدوء.

الجو دافئ، الشمس تُلمع السطوح والأشجار. شجرة الكرز الياباني في أبهى حللها الوردية، نحن الآن بين العشرين من شهر مارس والعاشر من شهر أبريل، هو الوقت الذي تزهر فيه هذه الشجرة.

بدل أن أنزل إلى الطابق السفلي، صعدت إلى العلية، الباب الصغير المرسوم على الجدار كان

ينادي فضولي. عدت لأفتحه. لم يكن باب خزانة بل باب درج نازل إلى مخزن للمؤن لصيق بالمطبخ، مُمَوَّه بآلة لتوليد الكهرباء وخردوات وأوانٍ معدنية صدئة. مَمَاسِح الأرض، وعدد كبير من المكانس اليدوية والإلكترونية.

بدا المنزل واسعا أكبر مما يحتاجه شخص واحد. ما حاجة سكان البيت لكل هاته المنافذ والأبواب والأدراج؟

نزلتُ الدرج بخطى ثابتة دون وجل؛ لأجدني في مطبخ مفتوح على وسط الدار والحديقة. كل غرف هذا البيت مفتوحة، إلا العلية. لكثرة الأبواب وتداخل الممرات، البيت متاهة حقيقية لا خروج منها لغريب.

غبار في كل مكان.

تنوع واختلاف محتويات المطبخ -كما أثاث البيت كله- لا يدع إمكانية لتحقيب زمني دقيق. بجانب الآلات الإلكترونية: آلة غسيل للثياب، آلة تحضير القهوة، الفرن الكهربائي، طنجرة الضغط.... هناك أوانٍ عتيقة: قصرية متآكلة الحواشي، كسكاس، براد مغربي لتحضير الشاي. طاجين من الطين الخشن المحروق. أوان نحاسية. غلاَّيات قهوة تركية، مطحنة يدوية للقهوة من الخشب. هاوُن نحاسي، أوانٍ خزفية بتشكيلات أردنية وسورية.

توابل عربية تجاوزت صلاحيتها بسنوات. عسل سوري. زيت زيتون تونسي، تمر جزائري، زيت أرغان مغربي، زيت زعتر من حيفا، ضفائر ثوم متدلية من مشجب فوق الفرن. معلبات فاصوليا وفول وحمص.

على باب الثلاجة الصدئة رسومات للأطفال، وجدول أسبوعي للطعام وثلاث فراشات ملونة ملصقة بعيار. لا تحتوي الثلاجة إلا على بعض المواد الخالية من الدسم ومن السكر وقنينات لمشروب عرق السوس ومنقع شراب الماتَّة المكسيكي.

المُجمِّد فارغ تماما.

على الرف علبة من السيراميك تحتوي بعض الأوراق النقدية، وفكَّة من الفرنك الفرنسي.

في درج سفلي، حيث توضع عادة الملاعق والشوكات والسكاكين وبين مناديل المطبخ، بطاقات تأمين، دفاتر شيكات مستنفدة، بطاقة هوية باسم خوان رودريغو أميًّا تاريخ الميلاد1910 دون تحديد اليوم والشهر. المكان الجزائر.

بعملية حسابية، يكون صاحب الوثائق قد تجاوز المئة سنة. لكن شكل الرجل الذي غادر البيت هذا الصباح لا يتعدى الخمسين من عمره، ثم لماذا توضع وثائق بهذه الأهمية في درج بالمطبخ؟

لا رائحة لطبيخ!

وسط المطبخ، مائدة طعام بستة كراسيّ حديدية (فيرْ فُورْجي)، شُكِّلَ سطحها من مربعات فسيفساء زرقاء وبيضاء. تتوسطها مزهرية سنابل قمح مجففة.

راديو صغير. مجلة باري ماتش، على الغلاف صورة للرئيسين الفرنسيين فاليري جيسكار ديستان وفرانسوا ميتيران في الشانزليزي، أثناء حفل تسليم السلطة. جريدة الباييس الإسبانية، مفتوحة على مقال مُعَنْوَنْ ب.(منظمة إيتا الانفصالية تهدد باستمرار العنف). قصاصة من جريدة لومند، بعنوان عريض: (مظاهرة لجزائريين في بْلاسْ دي لاميري تنتهي بأكثر من ضحية). في أسفل الصفحة وبحروف صغيرة: (النيابة العامة تتحفظ على الطبيب الذي حاول إضرام النار في بيته)....

روشيتات وفواتير للغاز والكهرباء باسم خوان رودريغو أميًّا مثبتة تحت مرمدة زجاجية. كل الأوراق في البيت صفراء ومتآكلة، باهتة الحروف.

مئزر معلق على مسند الكرسي. تفوح منه رائحة موت.

من خلف زجاج نافذة المطبخ، تبدو سقيفة الحديقة أكثر وضوحا وقد انحسر عنها ظل الصباح. الكلبة غيَّرت مكانها بعيدا عن أشعة الشمس، كما تغير مكان الكرسي الهزاز وتوقف عن الحركة.

مشهد عادي لكلبة تنام تحت قدمي صاحبها، وقت قيلولة.

في الداخل، رائحة النيكوتين تملأ المكان.

أول غرفة عند نهاية الدرج على اليمين، غرفة نوم. للغرفة أكثر من باب، واحد مفتوح على

صالون، الثاني على ممر يؤدي إلى الحمَّام ومن ثم إلى المطبخ. الثالث يؤدي مباشرة إلى الحديقة. داخل الغرفة باب مرحاض، وباب يبدو أنه لخزانة جدارية. دولاب ملابس من خشب الصنوبر، فتحته، استقبلتني رائحة قوية لنبات الخزامى. ثياب نسائية معلقة بحرص وترتيب مدهشين. فساتين كلاسيكية، فانلات، جاكيطات ومعطف من الفرو الثمين. كلها مقاسات 40.

هل هي للطليقة؟ أم لصاحبة الرسالة؟ أم للأم؟

الراجح أنها مقاس المرأة التي في صور الألبوم. أسفل الخزانة صف من الأحذية المُلَمَّعَة مقاس 39. لم أقاوم الرغبة في لمس فستان أسود مرصَّع بالخرز الأصفر، وبروش ذهبي على شكل فراشة عالق في الطوق. قربت الفستان من جسدي لأرى كيف يبدو عليَّ، فزكمتني رائحة عطر أعرفه، شانيل 5. أعدت الفستان إلى مكانه أغلقت الخزانة وأنا أتساءل: إذا كانت الزوجة قد غادرت منذ تسع سنوات، حسب المكالمة الهاتفية التي دارت بين الرجل والمحامي، فما الذي يجعله يحتفظ بثيابها كل هذه المدة؟ افتراضا أنه يأمل في عودتها، لماذا يحتفظ بثياب أطفال أصبحوا الآن شبانا؟

هالتني الفوضى التي عليها الغرفة. شقوق في الجدران وتحطم زجاج النافذة. أغطية السرير ملقاة على الأرض وقد تشربت رائحة الدخان، قمصان تفوح منها رائحة عرق قوي، بنطلونات معلقة بشكل عشوائي. أحزمة وشرائط لم أعرف لماذا تستعمل. على الكومودا علب مجوهرات رجالية وتحف صغيرة من الكريستال.

مرمدات في كل مكان، يبدو من أعقاب السجائر أو المدخنة جزئيا أن الرجل يدخن أكثر من علبتي سجائر في اليوم من نوع جيتان، هذا ما يبرر الصوت اللاهث والسعال المستمر. إضافة إلى بدانته، فمن الطبيعي أن يعاني من متاعب في الجهاز التنفسي..

السرير واسع، مائل الجانبين، مرتفع في الوسط. يبدو أنه ظل لمدة طويلة، فِراشا لجسدين متنافرين. ملاءة رثة، لطخة دم قديمة، لحاف مهترئ، بقع بنية، مخدتان حائلتان إلى الصفرة.

كومودااتان جانبيتان، على اليمنى قناع وأنبوبة أوكسجين. اليسرى بثلاثة أدراج فوقها لمبة مذهبة. مصابيح صغيرة ملونة موزعة على رأس السرير.

فتحت الدرج الأول، واقيات جنسية، مراهم، مِقَص لتقليم الأظافر، سكين سويسري. الأدراج الأخرى كلها ممتلئة بعلب الأدوية. يبدو أن ساكن البيت مصاب بأمراض عديدة: دواء للبروستات،

ما يبرر صوت تدفق الماء في المرحاض بين الفينة والأخرى. دواء لالتهاب الكبد الفيروسي، دواء السكري، أدوية للاكتئاب، دواء لارتفاع الضغط، وآخر للغدة الدرقية. دزينة من الحقن والكمادات الطبية.

يكاد يكون الحمام جزءا من الغرفة. حمام واسع بمغطس، دُشّ، مغسلتان، إحداهما كتب عليها معطل. فوق المغسلتين رفوف زجاجية تحتوي على صابون، شامبوات، مرطبات للجلد، مناشف بأحجام مختلفة، كلها تحمل أسماء سلاسل فنادق عالمية. آلة حلاقة كهربائية بجانب موسى حلاقة تقليدي صدئ. فرشاة للأسنان متآكلة. مبادل مصفرة وقديمة. ليس هناك أي أثر لحضور أنثوي في الحمام.

البيت بلا مرايا.

رغم أن للبيت جدرانا وأسيجة، إلا أنه بالنسبة لي، كان فضاءً لا متناهيا، عصيا عن الإحاطة، حتى ولو قضيت فيه سنوات.

قد يكون رد فعل طبيعي لجسد وجد نفسه في مكانين مختلفين، وزمن واحد.

لولا هذا الإحساس الداخلي بأنني سجينة هذا البيت بشكل من الأشكال، لكان البيت غرفة مفتوحة على محيطها. النوافذ والأبواب لا تغلق فيه أبدا. دائما هناك باب يؤدي إلى باب ثم إلى آخر ودواليك.

كل البيت متحف غير متناسق لتحف ورسومات وأشياء من أماكن وأزمنة وشعوب مختلفة. على يمين المدخل سلة من الدوم تجمع واقيات مطر بألوان وأحجام مختلفة. عكازان واحد من خشب الأبنوس، والآخر من خشب العرعار بمقبض عاجي. خناجر يمنية بأغماد جلدية مرصعة بأحجار ملونة. غلايين مصفوفة فوق رفوف رخامية. حتى الأباجورات من الطراز العتيق معلقة بأجساد منحوتة من النحاس الخالص. والكثير من الأقنعة المكسيكية والأفريقية السوداء، بمختلف الأحجام. منها ما علق على الجدران وما وزع على الطاولات.

انتابني إحساس بالمراقبة. انفلتت أعصابي لحظة، وتوالدت هواجسي. تحولت الأقنعة الفنية الجميلة عيونا تحاصرني، متسائلة عن سبب اقتحامي لخصوصية مكان لا أنتمي إليه. مكان غريب حقا بتناقضاته، أشبه ببيت لمجانين.

في مكان بارز على الجدار المقابل للمدخل، صورة لصاحب البيت معروضة بشكل لافت، حيث تكون أول شيء يصادف الزائر عند الدخول.

لأول مرة يتاح لي تأمل ملامح الرجل عن قرب. رغم أن الصورة علاها غبار كثيف والرجل يضع كمامة طبية. الوجه مألوف لديَّ، ملامح بعيدة عن الانطباع الذي بلورته من خلال الصوت الحاد والمتسلط.

وجه مسالم أو مستسلم تماما لقدر ما. لمسة رقة تضيء الوجه الحزين، وعينان تنديان بدمعة وشيكة. يبدو شخصا خجولا، غير واثق من نفسه.

لكن لِمَنْ يُوجه هذه النظرة المستجدية؟

رغم ذلك، لم يفارقني الإحساس بأنه شخص لا يوثق به. وأن حياته أو كل ما يتعلق به هو زيف وكذبة كبيرة.

أخيرا وجدتني في فناء واسع على حافة مسبح.

منتصف النهار، الشمس الآن عمودية. بقيتُ برهة قبل أن أعتاد الضوء الساطع، ضوءٌ صافٍ يغسل وجهي وروحي من عفن البيت. رائحة العشب نبَّهت حواسي للربيع.

أخيلة تتحرك من خلال ستائر الطابق العلوي.

البيت مُؤطَّرٌ من الأمام بجدار من مترين تقريبا. وسياج من الأسلاك الشائكة، صدئ ومتآكل، يكاد لا يفصل حديقة البيت عن حديقة البيوت المجاورة.

البيت ذو معمار متوسطي. الجبس المزخرف، الزليج والقرميد وطلاء البيت بالأزرق والأبيض. النافورة الجدارية المشكلة من الفسيفساء، النحت الناتئ لرأس رجل ذي فم كبير يتدفق منه الماء. خط تحته بالفرنسية: «هذا هو فم الحقيقة». اللمبات المعلقة على الأشجار. الأصيص المثبت على حواشي الشرفات رغم ذبول النباتات. تماثيل من الحجر الجيري لأطفال بأجنحة ونساء عاريات. مسبح كبير مُسيج. في ركن قصي همايكا مثبتة بين ساريتين. كل ذلك يحيل على بيوتات جنوب إسبانيا، أو جنوب فرنسا. لكنه قديم وآيل للسقوط، فأنابيب الصرف تالفة.

شقوق السقف، والجدران الخارجية من الطوب الأبيض غير المصنع، تحول لونها إلى الرمادي تحت تأثير المطر والشمس. جدران عرشت عليها أغصان اللبلاب ودوالٍ برية. مضخة الماء مشغلة، لكن المسبح فارغ، وقد غزت أرضيته الطحالب، وانتشرت في قعره برك آسنة تتقافز بينها ضفادع خضراء.

بين تجاويف السقف الإسمنتي والقرميد، صف من الأعشاش الطينية للخطاطيف.

على علو متر، شرخ كبير في جدار، يفسح المجال لكرمة تين صغيرة، لا تتعدى ثلاثة فروع طرية. اقشعر بدني لمنظرها الناتئ على سطح الجدار العالي.

النباتات أيضا مسكونة، تقول الجدة.

كانت هناك كرمة بجانب البئر التي تتوسط فناء بيت جدي؛ تثمر تينا أسود نادرا، بحجم الكف. كلما نضجت الحبات، تشققت وكشفت عن حمرة قانية شهية. غير أن الجدة كانت قد أصدرت فتوى التحريم. تنهر كل من حاول قطفها أو أكلها. إنها شجرة البئر المسكونة. حبة واحدة منها، ويصبح آكلها بسبعة أرواح شريرة. الأرواح تنفذ للجسد عبر حبة التين تلك.

الأعشاب البرية تغزو الحديقة. حديقة مهملة تماما، أو أن تربتها لا تستجيب للعناية والحياة. أعراش الخزامى الصامدة بين الحفر، مربعات الزليج المقتلعة. الباب الحديدي الذي علاه الصدأ. النوافذ المخلوعة، الزجاج المكسور. بقايا قشور خضر ترسل رائحة عفنة.. بئر بغطاء إسمنتي.

لم تتم العناية بالمكان منذ سنوات. ربما كان بيتا جميلا منذ أكثر من نصف قرن، بُني بذوق رفيع لعائلة متميزة وثرية.

لكن لماذا يبدو لي كل شيء مزيفًا، غير حقيقي وبلا روح. كبيت بلاستيكي للدمى؟

تشابهٌ ما بيني وبين هذا البيت، هو مثلي يلوذ بالعزلة والصمت. مساحات الظل العديدة في أركانه، شبيهة بتلك التي تطبع روحي.

كل منا يحاول أن ينسى ماضيه، أو ما تعفن من ماضيه في الذاكرة دون جدوى.

كأن البيت هو جسدي. تقززت للفكرة. حاولت أن أحرك ذراعي لأطرد هذه الصورة المرعبة، لكن

ذراعيَّ كانتا من الإسمنت الثقيل، وقلبي يدق كساعة من معدن...]

استيقظتُ مفزوعة على صوت المكنسة الكهربائية القادم من البهو.

استعدتُ وعيي بالمكان. كانت الساعة تشير إلى الثامنة والنصف. الضوء ملأ الغرفة. الملاءات السوداء أصبحت أكثر سوادا لاحتكاكها بضوء النهار.

كنت قد نمتُ بكامل ثيابي. أدركت أن عليَّ الإسراع بمغادرة الفندق، وإلا أضعت فرصة زيارة المتاحف كما أضعت جولة الأمس.

مضى اليوم في مدريد كما رَتَّبْتُ له: أخذت الميترو حتى محطة أتوشا، قمت بزيارة خاطفة لمتحف الملكة صوفيا ومنه إلى متحف تايْسِنْ بورْنيميسًّا ثم متحف ديلْ برادو راجلة. في الطريق، سالكة ممر ديل بْرادو، نظرت من خلال واجهات المكتبات، كانت رواية «جزيرة تحت البحر» لإيزابيل ألليندي تتصدر الكتب الجديدة، خلف الزجاج ملصقات كبيرة للإعلان عن الإصدار. بحثت في جيبي، خمسة وعشرون أورو، ثمن مناسب للطبع الفاخر ونوعية الورق وكذلك لحجم الكتاب. اقتنيته دون تردد. أمامي وقت طويل من الانتظار في المطارات.

بعد منتصف النهار، دخلت مطعما قريبا وطلبت صحنا منوعا من لاسْ طابَّاس. في انتظار الطعام انشغلت كعادتي بتأمل وجوه وسحنات السياح وهم يقلِّبون الأدلة السياحية. أنسج لكل وجه حكاية لحياته حسب السحنة والثياب. واحد أُلْبِسُهُ شخصية فنان لشعره الطويل. وأخرى أرى فيها امرأة ضائعة لكثرة تلفتها وزوغان عينيها في اللامكان. وآخر ينظر إلى ساعته بتأفف ظاهر، عيناه على باب المطعم يَستعجل قدوم امرأة لن تأتي.

امرأة في كامل أناقتها، لا يبدو عليها أنها سائحة بل مقيمة في شساعة مدريد. تُسْقِطُ الشوكة مرات. تسقط الملعقة والسكين. تسوي شعرها فتُسقط المشط. تعيد ترتيب ماكياجها فتُسقط أحمر الشفاه. الأكيد أنها امرأة أسْقَطتْ حياتها في صقيع الوحدة. فدسَّت جسدها بين الحشد طلبا لدفء عابر.

نظرتُ إلى المائدة بجواري. رجل خمسيني، يُطعم رفيقته الشقراء بشوكته، ويوشوش في أذنها مبتهجا: «في يوم ما، سأهرب بك بعيدا ونعيش معا». بلا مبالاة، تنظر الشقراء بعيدا، حيث بهلوان يقدم فقرته على الرصيف المقابل. ربما هي جُمْلَةٌ سَمِعَتْها مرات، فَحَصَّنَتْها مِن ألم الحب.

فأدركت أنه حين يودِّع رجلٌ امرأةً بهذه الجملة بالذات، فهذا يعني، أنها لن تراه أبدا.

حوَّلت نظري سريعا عن المشهد إلى صحن الطعام.

الخامسة مساءً، أمام باب الفندق، ناولني حامل الحقائب الفرنسي بسترته الرمادية وبقع النمش السائحة على وجهه حقيبتي، متمنيا لي سفرا ممتعا، آملا عودتي مرة ثالثة. فهو يذكر بدقة زيارتي السابقة ضمن فوج من الكتاب العرب. ذاكرته أقوى من كمبيوتر. يذكر الوجوه والأسماء التي عبرت الفندق، وحتى تواريخ الإقامة. حين كلمته بالفرنسية، أعرب عن ارتياحه للتكلم بلغته بين الفينة والأخرى مع الزبائن. لكنة فلاح من النورْمَنْدي، جعلته أكثر غرابة بين زملائه الإسبان.

كان مطار باراخاسْ غاصا بالمسافرين، المحطة رقم 4 على الخصوص. في هذا اليوم بالذات تبدأ احتفالات لا سِمَانا سانْتا.

أمام التسجيل (مدريد – سَانْ خُوسِّيه) الصف طويل، والحقائب كثيرة. أغلب المسافرين من أمريكا اللاتينية، يحملون الكثير من الهدايا. ربما أنفقوا دخل أشهر من أجل سفر كهذا إلى مسقط رأسهم.

وقفت على أصابع رجلي، مُشرئبة نحو الكونتوار لأقيس زمن الانتظار. حينها لَمَحْتُهُ في الصف المجاور، على بُعْدِ أمتار مني. واقفا ينتظر دوره أمام تسجيل الأمتعة (مدريد - باريس). حليق الرأس واللحية، معطف كاكي، وبنطلون جينز باهت، وحقيبة ظهر. في يده دليل سياحي لمعالم مدريد.

لحد الآن لم أفهم ذلك الإحساس بأن وجوده في المطار، وفي تلك اللحظة، شيء عادي بل بدَهي. حتى أنني لم أشكك في شخصيته أو مدى شبهه بصاحب بيت الليل. في نفس الوقت، شيء أساسي لم أدركه جعله إنسانا آخر مغايرا.

تريثت في اللحاق به، لديَّ ما يكفي من الوقت قبل الإركاب. وإذا ما تركت مكاني الآن وذهبت إليه، عليَّ أن أعود بعدها لآخر الصف، والانتظار ساعة أخرى قبل الوصول إلى كونتوار التسجيل.

تابعت مراقبته حتى لا يفلت مني. كنا في نفس الترتيب حسب الدور. يبدو عليه التوتر والاضطراب، وعدم الاطمئنان، كما لو أن البشر والأماكن العامة تستفزه، يتحاشى الكلام مع

الرجل أمامه أو الالتصاق بالمرأة خلفه في الصف. لعله أكثر هشاشة مما توحي ملامحه. كلما تقدم الصف يدفع حقيبته برجله اليمنى دون انحناء. لحظة، أخرج من حقيبة ظهره فطيرة هومبورغر، أنهاها بقضمتين، متلمسا بطرف لسانه ما علق من بقايا الطعام على شفتيه.

سَلَّمْتُ حقيبتي وأخذت تذكرتي، حين التفت كان قد اختفى في الزحام.

جريت كالمجنونة، بدل أن آخذ المصعد، نزلت الدرج إلى الطابق الثاني، بسرعة من يلحق طائرة على وشك الإقلاع. هذا ما سيظنه أغلب من اصطدمت بهم.

حسب الشاشة، فإركاب الطائرة المتجهة إلى باريس سيكون من البابM، وإركابي من البابS، وهما في نفس الاتجاه. والمفروض أن نستقل نفس القطار المتجه نحو المحطة4S.

خلال الدقائق الخمس، المسافة الزمنية التي تفصل المحطتين بالقطار الصغير، تفحصت كل وجوه المسافرين دون جدوى. عند الوصول رأيته يصعد الدرج في اتجاه البابM. خطو هارب، مشية عرجاء، يتخطى الصفوف كأن شخصا ما يطارده.

تسللتُ بين الصفوف؛ لأكون الأقرب من مكتب شرطة العبور. مرة أخرى فصلت بيننا الخرائط. رأيته في الصف الموازي، الخاص بمواطني الاتحاد الأوربي الذين يعبرون كالسهام، بينما نحن أصحاب الجنسيات المختلفة نظل تحت رحمة شرطي يدقق في الجوازات والتأشيرات ولون البشرة والشعر، لحظات طويلة قبل أن يسمحوا لنا بالعبور.

تصفَّح الشرطي جواز سفري، قلَّب جميع صفحاته. تأمل الصورة، ثم توقف عند المهنة (كاتبةEcrivaine)، نطقها براء إسبانية فجة، فيها الكثير من العدوانية. تأمل تأشيرات الدخول السابقة.

- تسافرين كثيرا.

لم أنتبه هل هو سؤال أم ملاحظة. كنت أفكر في أقرب المسالك لأصل إلى الرجل.

- أشارك أحيانا في مهرجانات شعرية ولقاءات ثقافية. أجبتُ.

علق وهو يضع الختم:

- لا أعرف الكثير من الشعراء الإسبان، غادروا حتى بلداتهم.

مغتاظة، لُكْتُ ترجمة سريعة لقولة الشاعر بوكوفسكي:

- خلق الله الكثير من الشعراء لكن ليس الكثير من الشعر.

أجبتُه بسخرية.

عند الحاجز الأمني، طلبت مني الشرطية خلع البوت الشتوي. كنت منشغلة بمصير الرجل فبدا عليَّ السهو والارتباك. بارتياب، أشارت الشرطية إلى حقيبة يدي، فتحتها تبعثرت كل الأوراق والأغراض. جمعتها بفوضاها، وعدوت في اتجاه قاعة الإركاب M26 الخاصة بسفرة باريس، الساعة السابعة. كنت ألهث وأوزع الاعتذارات على كل من أصطدم بهم، أو أتعثر في حقائبهم.

حين وصولي، وجدت القاعة شبه فارغة، وصوت المضيفة يُرسل إنذارا أخيرا «على السيد خوان رودريغو أميًّا الالتحاق بالطائرة. الرحلة 225 المتوجهة إلى باريس».

جلست على مقعد قريب، أحسست بارتياح عميق. ربما سيصل بعد ثوان، لا يمكنه أن يتخلف عن طائرته. بعد دقائق انطفأت الشاشة، جمعت المضيفة أوراقها، وأغلقت باب الممر المؤدي إلى الطائرة، ثم غادرتْ.

قبل أن أُضيع طائرتي أنا كذلك، لململت شتاتي، تطلعت إلى الشاشة المقابلة، بقيت ساعة وثلاثون دقيقة على الإقلاع. مشيت أجر حقيبتي، وخيبتي، وأسئلتي المُشرعة.

كان عليَّ أن أسلك ممرا طويلا، وأن أمر بأبواب عديدة، قبل الوصول إلى البابS3. التفت يمينا: خلف الزجاج، وقبل الحاجز الأمني، رأيته في عناق طويل مع امرأة. لم أميز منها إلا ظهرا مستقيما وشعرا فحميا طويلا معقودا إلى الخلف على طريقة ذيل حصان؛ وقامتها القصيرة. كان يقبلها، يتشبث بذراعيها كلما حاولت الانفلات منه. وهو ما يبدو على المرأة الغاضبة. احتقان وجهه، حركات يده تدل على الاستعطاف والرجاء. يُمسد شعرها، يلمس وجنتيها، بينما المرأة تلوح بورقة في وجهه، وتشيح بوجهها عنه في نفور بادٍ من قبلاته. يقربها إليه، تبتعد عنه متأففة. فجأة هدأت المرأة، أحنت كتفيها، أمالت رأسها إلى الأمام حاجبة وجهها بيديها. اهتز جسدها الصغير. كانت تبكي.

مشهد يدل على أن شيئا قد وصل نهايته.

من تكون هذه المرأة؟ هل هي الزوجة؟ هل هي المرأة التي كانت ترافقه على متن الطائرة باريس-عمان؟ قارنت بينها وبين المرأة الصغيرة التي رأيتها تشاركه السرير في حلم ما. هناك احتمال كبير أن تكون هي تلك، غير أن المسافة والزجاج السميك حالا دون كشف الملامح بدقة.

أثار الجدل الساخن بينهما فضول بعض المسافرين وموظفي المطار. انتظرت طويلا نهاية المشهد.وأن يخترق جسده الضخم الحاجز الزجاجي الفاصل بيننا، دون أن يتشظى الزجاج، كما كانت روحه تخترق حجب نومي، وتأخذني في جولة غرائبية عبر مسالك البيت.

استرخت أعصابي. باستسلام للقدر تساءلت: لماذا أطارد هذا الشخص محاولة تغيير مصير ذاهب نحو حتفه وضياعه؟ إذا كان الرجل نفسه يراوغ ويتخفى كي لا يكون حقيقة، لماذا أقوده رغما عنه إلى الضوء؟ أقل واجب إنساني، أن نحترم رغبة رجل يساق نحو الظلمة، أو ربما هو رجل ميت مع وقف التنفيذ.

كثيرا ما يكون الهروب امتحانا ذاتيا، لمعرفة إن كان بمقدورنا جعل الماضي غير موجود. كما أنني لست أسيرة شخص. أنا أسيرة بيت ليس إلا.

خَلُصْتُ إلى أنه من الصائب أن أنهي هذه المطاردة. في هذا المطار، وعند هذا المشهد. فالمطارات مكان مناسب للنهايات. لكن الفضول البشري أقوى من حكمة القرارات. ما جعلني أبحث لمتعة البحث لا لمتعة العثور.ترددت قبل أن أتابع خطوي.

لم يتبق لي الكثير من الوقت. هناك طائرة تنتظرني.

في الموت، لنا ما يكفي من الوقت للتحسر والندم.

«للغياب تأثيرات لا تمحى، فالوجوه تتشوه في الغياب المضبب للذكريات. وأحيانا، نتساءل إن كان أولئك الأشخاص قد وجدوا فعلا في الواقع. إن الحنين يستطيع أن يُضفي عليهم مسحة أسطورية غريبة، والزمن الماكر يخفي الماضي المضبب خلفه، ويربطه في الأذهان مع الخيالات والأوهام....».

أغلقت الرواية التي بين يدي «المرأة المسكونة» للكاتبة النيكاراغوية جيوكُونْدا بيلي. وقمتُ في اتجاه

المدخل رقم 23. كان المضيف يعلن بدء الإركاب، الطائرة المتجهة إلى سان خوسيه. الرحلة 555.

عائشة الشيليَّة

«إنَّ النهايةَ توجَدُ هناك حيث نبدأ»

ت.س. إيلْيُوتْ

أتعبني التحديق في الشاشة، وتتبع الخطوط الحمراء المتذبذبة. طقطقة الآلة فوق رأسي، وتردد دقات القلب في داخلها، أثارا أعصابي.

تأملتها.كم من القلوب عبرت هذه الآلة؟ منها ما خمد، منها ما عاد بأشرعة ممزقة، ومنها ما ينتظر.

مازلت هنا،كأن قرنا قد مضى. كلما استيقظت أتحسس أطراف جسدي؛ لأتأكد من وجودي الفعلي. في بعض الصباحات، لا أثق في حواسي، أصرخ منادية الممرضة، فقط؛ لأسمع صوتي.

المرأة في السرير المقابل ترسل إلي نظرات ميتة. مع الوقت، أدركت أنها لا تقصدني. فهي غائبة عن الوعي.

افتقاد حميميتي يزعجني، بإصرار من الممرضة على إبقاء الستار الفاصل مشرعا. رائحة الأدوية والمعقمات تثير معدتي.

النهار طويل والوقت سائب. إذا كان الوقت قوامه الساعات والدقائق والثواني، فهو هنا في هذا المكان دقات قلوب، ونبض بين الارتفاع والانخفاض.

لا نافذة، لا شجرة، لا قطعة سماء تأخذني بعيدا. المكان أقرب إلى عنبر للموت منه إلى قاعة إنعاش في مستشفى.

الليل ممل، رغم الزيارات التي حظيت بها من موتاي المقربين، بين اليقظة والغيبوبة.

«إنها ليست خرافة، فأرواح الموتى موجودة بالفعل. أشباح الموتى تفلت من المحرقة وتعود إلينا» لا

أذكر لمن هذه القولة، ولا أين أو متى قرأتها، فذاكرتي الآن ليست مؤهلة لذلك، ولا وعيي يدرك، هل أنا التي أذهب إلى هناك أم هم من يعودون إلى هنا.

والدي(********) كان أول الزائرين. وكأول هيئة راسخة من الطفولة، بدا شابا أنيقا، حليقا، ببدلة كحلية، قميص أبيض تتلألأ في أطرافه مشابك ذهبية، ربطة عنق حمراء. جلس على الكرسي عند قدم السرير، تأملني طويلا، وضع كفه على جبيني، تلا آيات من القرآن. ابتسامته الحنون، أيقظت عاطفة غَيَّبْتُها سنوات. لم يكلمني، ومع ذلك سمعت السؤال:

– هلْ رَأَيْتِه؟

لم أكن حينها قد رأيتُ الله، لكن والدي كان قد بلغ مرتبة التجلي فرآه. هو لم يخبرني، عرفتُ ذلك بعد أن شَرِقَ بجرعة هواء ومات. فآخر ما دَوَّنَ في مذكرته: «الله هو المعشوق الأول، كل الموجودات إليه تشتاق وتَحِنُّ، ونحوه تقصد. الله نور الأنوار». وبخط راجف، حاشية: «تمت الرسالة السابعة والثلاثون (ماهية العشق) لإخوان الصفا».

كَمُدْرِكٍ للجواب. اندثر والدي في غبش عينيَّ.

جدتي لأمي، جاءتني بطبق كبير من الخبز، ألحت عليَّ أن آخذ قطعة، رفضتُ بشدة؛ لأن جدتي لأبي حذرتني أن آخذ شيئا في الحلم من يد ميت، حتى ولو كان أقرب الناس، فهذا يعني دعوة لموت مُحتم، فالموتى يشتاقون أيضا.

استغربتُ وضوح ملامحها، فذاكرتي لم تحتفظ بصورة واضحة للجدة الضريرة. رغم أنني، وأنا صغيرة، كنت أساعد أمي كل صباح، طيلة سنة كاملة، على تنظيفها، تغيير ملابسها وتمشيط شعرها الناعم والطويل، بعد أن أصبحتْ عاجزة تماما عن مغادرة السرير. كانت رائحة تصعد إلى أنفي وأنا أسند الجسد النحيل إلى صدري، رائحة موت أبيض. نفس الرائحة التي كانت تطفو بين جدران بيتها العتيق بمدينة فاس. بداية كل شهر شعبان.

كانت الجدة تقيم ليلة للمقرئين وحفظة القرآن، يحضرها حشد من الأصدقاء والمقربين. من طقوس تلك الليلة، وبعد عشاء فاخر، تدخل الجدة القبة (الصالون) وهي تتلمس طريقها بين الحاضرات، تحمل كيسا من الفول المجفف، وقماشا أبيض، ثم تتمدد وسط حلقة المقرئين، تلف جسدها في الكفن، وتظل جامدة بلا حراك كميت. ترتفع الأصوات بتلاوة القرآن، ويتصاعد

دخان زكي من المباخر، ثم تنخفض الأضواء تدريجيا. في تلك اللحظة بالذات يختفي الأطفال مرعوبين في المصرية (العلية)، التي تكون عادة في الطابق الأخير. لم أكن أهرب كما يفعل الأطفال الآخرون، كنت ألتصق بسارية البهو الواسع حتى لا يكشفني الكبار، أتابع الحفل، وأتأمل غرائبية الطقوس، وأتتبع يد المقرئ وهو يتناول حبة فول، كلما أكمل المقرئون حزبا من القرآن، ويضعها في إناء جانبي، إلى أن يمتلئ الإناء عند طلوع الفجر بختم للقرآن.

كنت أعرف، لتكرار هذا المشهد السنوي، أن الجدة وبعد دعاء الختم، ستغادر كفنها، وستحمل إناء الفول ليكون إفطارها الوحيد طيلة سبعة أيام من الصوم. في الصباح يتحاشى أطفال الأسرة ملامسة الجدة أو حتى الاقتراب من غرفتها، بينما ألوذ أنا بحضنها الدافئ. فموت الجدة لساعات يجعل حضنها أكثر أمانا للحياة.

ابتعد طيف الجدة تدريجيا، وبابتعادها انطفأت مسالك الضوء.

عماتي دخلن عليَّ في دفعات، فهن أكثر من عشرين عمة، حتى أنني نسيتُ جُلَّ الأسماء. ثرثرن قليلا فوق رأسي، تجادلن في مشاكل العائلة. حتى وهن في العالم الآخر، مازلن يبحثن عن جواب لسؤال مغرض، شغلهن لسنوات: كيف وضعت أَمَةُ الجد السوداء، مولودة شقراء، إذا كان جدي هو كذلك أسمر؟ كنت سأخبرهن بأنهن تركن الجواب في الحياة، هناك علم الجينات والموروثات.... لكنهن انسحبن. غير عابئات بتفسيري العلمي.

شكري(********) كان أخفهم ظلا. حياني باسم الكونْتِيسة، كان دائم اليقين، بأن اسم عائشة قنديشة، هو اسم محرف عن عائشة الكونتيسة.

بعد ذلك احتج وبحدة، على طبق الدجاج بالبصل، الذي أخذْتُهُ له إلى المستشفى، فالطعام كان زائد الملح، والمرق لم يكن مركزا بما يكفي. لكنه اضطر لالتهامه، إذ لا يُستحب الذهاب إلى الموت بمعدة فارغة.

عند منتصف الليل، زارني محمود درويش(********)، وضع باقة بنفسج يابسة على الطاولة الجانبية. ساخرا كعادته قال:

-ألستِ أنتِ من كتب، رغبات أنيقة «لِقَبْري أقترحُ البنفسج». ليس الموت سيئا كما يُعتقد، فقد يحقق الرغبات.

ثم، مشاكسا كعادته:

- أخيرا سيتَحَرَّرُ صاحبكِ منكِ.

سألته، هل مازال يكتب؟ هل هناك في الطرف الآخر قراء كثيرون للشعر، ومعجبات؟

ضحك عاليا:

- ندمتُ، كان عليَّ أن أُجرب الرواية، إنها الجنس المقروء هناك. يحتاجه الموتى كثيرا لتمضية الوقت. الموت طويل وممل، كالرقاد في أسرة المستشفيات. وجهكِ مصفر، هل أنتِ خائفة؟

- مِنَ الموت؟ لا. الموت في حد ذاته ليس مخيفا، بل الطريق إليه. أخشى فقط أن تعود إليَّ الحروف ولا أعرفها، أو تعود إليَّ لغتي مزكومة برائحة العدم. لا أعرف، هل ستعيدني القصيدة إلى حضنها، هل سيثبت القلم بين الرجات. ثم، هناك سؤال يزعجني: ما الشعر أمام هذا الموت؟

- وَلَوْ...!. الشعر أبدية صغيرة، انتصار بسيط على الموت. ها أنا ما زلت أسمع صوتي مع كل هبة ريح. لا أظن أن القصيدة نسيتني.

أسند مرفقه على رأس السرير، انحنى عليَّ قليلا، كمن يفشي سرا:

- مِتُّ في الصيف كما تعلمين، لكنني لم أعرف بموتي إلا في الشتاء. عند أول مطر، لانت التربة من حولي، غرقتُ في الماء، بعد أن قضيت شهورا وأنا أنتظر يد الممرضة الأمريكية لتوقظني، أو صوت طبيب الإنعاش يحثني على الحياة، معتقدا أنني مازلت في المستشفى. بعد أيام كفَّ المطر، خرجتُ أتمشى لأنفُض الرطوبة عن مفاصلي، فصادفت أمي، تغزل الصوف بجانب البئر، هي التي أكدت لي موتي.كان موتي سهلا لكنه مليء بالانتظار والمفاجآت، كنت أفضل أن أحضر جنازتي بوعي كامل.

عَلَّقْتُ:

- يحدث هذا كثيرا للأشخاص الذين يموتون في غيبوبة. وحدها أمك لم تتحمل غيابك وتبعتكَ بعد ستة أشهر وبضعة أيام. لا أحد استوعب موتك.

قبل شهرين، زرتُ بيتكَ في عمان، ما زال كما كان. الفراشات التي تركتها معلقة على باب الثلاجة، تقرؤك السلام....

صفير الآلة أمامي. يُؤشِّرُ لانخفاض في الضغط. صرختُ منبهة الممرض المداوم. امرأة السرير المقابل تموت للمرة الثالثة، في هذه الليلة. هرج. صوت تدحرج عربة الدواء في اتجاه السرير. امتلأ العنبر بالأطباء والممرضين. استيقظ المرضى، ارتفع أنينهم.

قبل أن تغادر الزفرة الأخيرة، كان الصاعق الكهربائي يحفر الحياة على الصدر، ويعيد إليه الروح.

في الصباح، وككل مرة، ستستيقظ المرأة موردة الوجنتين، ستلتهم فطورها بشراهة. كانت امرأة أمية، لا تدرك ما يحدث لها.

أحسن، من الأسهل أن يكون الموت غافلا.

- إرمين! إرمين!

تطل الممرضة:

- لم أعد أسمع صراخ الرجل الذي كان يحتل سرير الزاوية، هل تحسن وغادر الإنعاش؟

- لقد وجدته الممرضة ميتا زوال اليوم، لم يكن صراخه إلا من ألم الموت واستعطافا للحياة.

ثم استطردت:

- هل تعبتِ من الاستلقاء على ظهرك؟ هل أغير وضعكِ؟

قلت وأنا أشير إلى الآلة التي تراقب نبضي:

- لا، فقط، أرجوك، احرسي قلبي، لا تغفلي عنه، أريد أن أنام قليلا.

[... عنبر طويل. صفان متقابلان لأسرة بيضاء. على رأس كل سرير آلة طبية، ترسم خطوطا حمراء، ترسل دقات متذبذبة كقلوب معلقة. رجال ونساء بملابس موحدة. كل واحد يقف

منتصبا على رأس سريره.

بجانب كل سرير قبر مفتوح، حديث الحفر. ممرضة سوداء طويلة وممتلئة، شعرها ملفوف بمنديل أبيض، نظارتان سميكتان بالكاد تُظهر العينين الضيقتين كحبتي حمص مطبوخ. شرر. زبد يتطاير. تحمل مسطرة حديدية، تنقلها من يد إلى أخرى بحركة بهلوانية. تتمشى بين الأسرة / القبور، تصرخ آمرة ومهددة:

- عليكم بتنظيف المكان. كل واحد يضع جثته في قبره ويغطيها بالتراب. لا أريد أثرا لأيّ منكم. إحصائيات وزارة الصحة هذا الأسبوع أقلقت المسؤولين. أصبح الموت أكثر من الحياة. وليس على الطاقم الطبي وحده تنظيف المشفى.

خِفْتُ. هَيَّأْتُ فمي للكلام. كنت أريد، فقط، أن أنبهها إلى أنني أخطر حالة في هذا العنبر، وقد عدتُ من الموت مرتين. ولا أستطيع أن أحمل جثتي الثقيلة. كما أنها هي نفسها من أمرني بعدم الحركة وملازمة السرير. كي لا تصعد حبيبات الدم المتخثرة إلى الشرايين وتوقف عمل القلب مرة أخرى.

ظل الكلام عالقا في حنجرتي، فقد بدأ الكل في العمل، وسادت الظلمة المكان.

رُفِعَ الستار عن مقبرة(********)، كمدينة صغيرة، بشوارع وأزقة وحدائق وعناوين وأبواب عليها أرقام. وكراسيّ من خشب رفيع للاستراحة وشرب الأنخاب. ورد في كل مكان. تذكرت مقبرة مُونْبارْناسْ بباريس. طَمْأَنْتُ نفسي، ربما هي دعوة كريمة من موتاي لحفل كرنفال.

ثم، رَأَيْتُني أنبش قبور أحبة رحلوا، وأنثر الغبار على جسدي. أتحسس جبين موتاي، فتتسرب ذبذبات صقيع إلى دمي. أدوس العشب بقدمي، فتتجمد عروق الأرض. تتورم أشجار الغار، تنفض أوراقها في ضجر، ألتقطها وأستر بها عورات الجثث المتناثرة.

مِلْتُ على قبر، شدني ما كتب على شاهدته، كاتبها أدرك معنى الموت:

«أنا لمْ أَمُتْ،

أنا فَقَطْ في الغُرْفَةِ المُجاورَةِ،

أَنْتَظِرُ قُدومَكِ لِنَرْحَلَ مَعًا.»

فجأة، رأيتُه، جالسا على حافة قبر. شعر أبيض، أشعث وطويل. ثياب مهلهلة. يبدو أنه شاخ بسرعة. عَجِبْتُ. ما الذي جاء به إلى هذا المكان المُلتبس؟

ككلام فاض عن حديث سابق سألته:

- هل أنت الدكتور خوان رودريغو أميَّا(********)، صاحب البيت الكبير، ذو المسبح الواسع، وسطح القرميد الأحمر، الذي يقع في ضاحية مدينة ما، في بلد ما..؟

حرك رأسه نافيا.

أصررتُ:

- رأيتك مرات عديدة في ذلك البيت، تنام في غرفة نومه، تأكل في مطبخه، تلمع أثاثه الخشبي القديم. وتعتني بكلبة اسمها لايْكا.

قال:

-أعرفُ كلبة بهذا الاسم. لكنني لا أعرف اسمي الذي سَمَّيْتِنِي به.

-لكنك، فقط، في الربيع الماضي، كنت تنظف مسبح البيت وتجهزه للصيف.

تمتم...

-لكنني مِتُّ منذ ربع قرن. قبل ذلك ولدت في غيتو، وعشت باسم مستعار. ربما تقصدين صاحب هذا الاسم.

- ليس لي يقين كامل، لكنني -وأعتذر عن ذلك- راقبتك مرارا من علية البيت.

- لا تعتذري، لم تكوني هناك من أجلي، كلنا في حاجة إلى عليات، للعودة إلى ذواتنا، وإعادة ترتيب الحياة.

تململ قليلا عن القبر. غَيَّرَ من جلسته مادًّا رجليه إلى الأمام. انحسرت فجوة، استطعتُ أن أقرأ ما

كتب على شاهدة القبر:

«عَلَى هذِه الأَرضِ،

سَيِّدَةَ الأرضِ،

ما يَسْتَحِقُّ الحياة»

أشرتُ بإصبعي:

- هل تعرفه؟

أجاب:

- أعرف المقبرة شبرا شبرا؛ لأنني أذهب وأعود مرارا. انظري، هناك مثلا عند المنعطف، القسم6 قبر الشاعر شارل بودلير. في الاتجاه المقابل، القسم20 ترقد سيمون دو بوفْوار بجانب رفيقها جان بُول سارتر. بُعَيْدَ أمتار، القسم26 قبر غي دو موباسان وهناك...

قاطعته:

- لا أقصد القبر، بل أقصد صاحبه.

- نعم، كان شاعرا، عرفته كعدو لا كصديق.

- الشاعر طفل مسالم، كيف تعادي طفلا يا رجل.

- شخصيا لم يكن بيني وبينه عداوة. لكن شعره، وبالضبط قصيدة له، أظن أن عنوانها كان «أيها العابرون» أو «أيها المارون بين الكلمات العابرة»، كانت تقصِدُني.

توقف عن الكلام، خطا خطوة نحو القبر المفتوح بيننا.

أوقفته:

- لكنك تحتل قبري، هذا القبر لي، أين سأضع جثتي؟

تطلع إليَّ وبسخرية عدوانية، صحح لي:

- ما تبقى من الجثة!

حَكَّ جبينه كمن يعتصر ذاكرته:

-آه... ! تذكرتُ، أعرفكِ من حياة سابقة، كنتِ إحدى مريضاتي. أليس كذلك؟ حسب ما أذكر، كنت أعالجك من مرض نادر، اسمه ارتفاع الوهم في الدم، ألقيتُ محاضرات عديدة للتحسيس بهذا المرض في دول عديدة، خصوصا في دول من أمريكا اللاتينية. أما زلتِ تواظبين على تناول الدواء الذي وصفته لكِ؟ كنت أعالجكِ كل أسبوع بالصعقات الكهربائية، فقط؛ لتتخلصي من وهم اسمه البيت، ولتتقبلي أنني لست سوى حلم... ولتُدركي أن بيتا قائما في الفراغ، ليس بيتا، حتى ولو كان بمسبح وسطح قرميد أحمر. إمممم! بوفْريسيتا، دونْ كِيخوتي دي لامانْتشا نفسه، لم يكن أكثر توهُّما منكِ.

- اسمح لي، لا أرى هناك مجالا للمقارنة، سيرفانتس نفسه، هاجم أخطار التوهم، وجهد في إقناع القارئ أن قصة دون كيخوتي حقيقية وغير متخيلة.

كتم تثاؤبا:

-كان مرضكِ مركبا من الوهم والجبن، والخوف من البدايات، من الصفحات البيضاء. رقم فارغ وضئيل، اسمه الصفر، كان يُرعبك حتى الموت. كما أنكِ وقعت في الفخ سيدتي الصغيرة. وخلطتِ بين الأدب والواقع، بتعسف مبالغ فيه على جنس الرجل. واحد خلعتِ قلبه من صدره غيرةً، وآخر قطعتِ رجله بعد حرب لم تحدث، ووضعتِ له رجلا خشبية. تخلصتِ من رحمك كي لا تنجبي ذكرا خانكِ ووو

- انتَبِهْ! أنت كذلك تخلط بين الأشخاص. أنت تخلط بيني وبين امرأة أخرى.

لم أفهم:

- أنت تتحدث عن فْريدا كالو الرسامة المكسيكية.

- ربما، لكنني، حتى في لا وعيي، لا أخلط بين الأشياء، إلا إذا كان بينها رابط ما، فأنا طبيب. قد تتشابهان، أو لكِ بعض من سورياليتها. حضرتُ مرة مؤتمرا طبيا في المكسيك. التقيت بها، أو سمعت عنها من إحدى خليلاتها، للأمانة لا أذكر. تلك المرأة المسكينة، لم يكتفِ الله بخلقها عرجاء. بل سحق عظامها بين حافلة وتراموايِ. ومزق رحمها وهي في العشرين من العمر. ستفاجئين إذا أخبرتك: أنها مثلي، من أصول هنغارية، نزحت عائلتها اليهودية إلى ألمانيا. ووالدها ولد في ولاية بادِنْ بادِنْ، نفس المنطقة التي ولدتُ أنا فيها. في الثامنة عشر من عمره، هاجر والدها إلى المكسيك، وأصبح يدعى هناك غيِّيَرْمُو. قد تكون بيني وبين العرجاء، قرابة أجهلها. أو ميراثا نتقاسمه، كجينات الجنون مثلا. قال مبتسما.

انتبهت، أننا نتكلم لغة يفترض أنني لا أعرفها، ومع ذلك لم أهتم.

اقترب مني أكثر، وشوش في أذني كلاما، قفزت من مكاني:

- كيف عرفتَ؟ هذا غريب جدا، لي اليقين أنني لَمْ ولَنْ أُحدث أحدا بهذا السر، إلا إذا كنت منومة أو في غيبوبة.

- أو ميتة، أضاف، الموتى لا يكذبون. لا نكون أصفياء وصادقين إلا في حالتين: الموت والحب.

- لم يكن لي يقين في الحب إلا الخيانات، كنتُ أَتَوَجَّسُ من كل شيء، حتى ولو كان لمسة نسمة أو هسيس ماء، علمتني الخيانات أن الشك هو الحقيقة الوحيدة. روضتني الأيام، أصبح النسيان فرحي والتذكر ألمي.

- ها أنتِ تعودين مرة أخرى، لسوداوية اللغة وازدواجية الرؤيا. في النفق، التقيتُ بالكثيرات مثلكِ: فِيرجينيا وولف، سيلفيا بلاث، أديل هوغو... نساء بمصائر محطمة. لكنهن اختلفن عنك بشجاعتهن وقدرتهن على توقيف الألم، رمين الحياة في مزبلة الموت. أما أنتِ فقد اكتفيتِ بتعليق أخطاء الحياة، على مشجبٍ هشٍّ اسمه الرجل.

أدمعت لقساوة التهم، استجمعت قواي، لا يكفي أن نكتب، علينا الدفاع عما نكتب، فألححتُ:

- بالعكس، كنت مسالمة وموضوعية تجاه الرجل، رغم خذلانهِ. حتى أُتهِمتُ بانتصاري للرجل وبعدم الإخلاص لجنسي كامرأة. ثم، لا أحد من قرائي اشتكى أو تضرر، هل التجأ إليك أحد منهم؟

أنت الأدرى في هذا المجال، هل أصيبت إحداهن بالشيزوفرينيا بعد قراءة كتاباتي؟ عليك أن تقتنع أنت كذلك -إن كنت مزيفا أو حقيقيا، حلما أو واقعا، حيا أو ميتا- بأن لغتي ملك لي وحدي، أصوغ بها حياتي وحيوات الناس بالشكل الذي أراه مناسبا...

- عيبكِ سيدتي، أنكِ عشتِ الحلم أكثر مما عشتِ الحياة، ولحد الآن تجهلين في أيهما كنتِ. ضيعكِ المابين.

- ليس إلى هذا الحد، صحيح قدمتُ تنازلات كثيرة للواقع، لكنني كنت أستعيدها في الحلم.

توقفَ، حك شعره المشعث المسترسل على كتفيه.

- كم مرة قلت لكِ، احذري المابين، كنت أنطلق حينها، من تجربتي الشخصية لأعالجكِ. فأنا عشتُ ميتا. للتصحيح والدقة، فالموت ليس وجودا آخر، بل هو مجرد عبور إلى وجود ثالث، لا يمكن أن نسميه حياة ولا موتا؛ لأنه المجهول. ليس هناك شيء نهائي، لا الحياة ولا الموت ولا حتى ما بعد الموت. لقد جهدت الديانات، قدر المستطاع؛ لإعطاء تفسيرات وأسماء لذلك الوجود الثالث. لطمأنة النفس البشرية القلقة. غير أن هناك أناسا مثلي(********)، ولسبب ما، يظلون عالقين في الممر، البرزخ، لا هم أحياء ولا هم أموات، يتجولون نهارا مع الأحياء وينامون ليلا مع الموتى.

قاطعته بعنف:

- في الحياة الأخرى، كما قلتَ، وخلال جلسات العلاج، كما تدعي، كنتَ تحذرني من زيف اليقين، وتلعن قَطْعِيَّتي، أنت من أقنعني بأن الحياة متقلبة كما الأشخاص، لا يجب أن نثق أبدا، أن نؤمن أبدا وأن نضع دائما علامة استفهام في آخر السطر. ها أنت نفسك، الآن، علامة استفهام وضعتها الحياة لي، في آخر العمر. فكيف أثق بكَ؟

- كنتُ أهيئكِ لعمر آخر، لكنكِ كنت هشَّة وجبانة ومضحكة. أُعْطِيتِ دورا واحدا إضافيا، على مسرح الحياة. أخافكِ، وهرولت مسرعة نحو القبر.

- لم أكن مِمَّنْ يؤمن بالمعجزات، لا شيء يحدث في الخريف، فلماذا أُجَرْجِرُ الحياة؟ ثم، لا تنسَ أن الجسد خانني. جسدي وروحي لم يكونا على وئام. روحي كانت كثيرة التأنيب، رغم أن خطاياي كانت صغيرة وبيضاء. كانت روحا مشاكسة يلزمها أكثر من جسد لتَتَحَقَّق. جسدي كان كثير الإلحاح

والاحتجاج. لم يكن بينهما ود. نكاية بروحي أصبح جسدي يُصَنِّعُ الموت من خلاياه، حتى ضغط الدم على الصدر. تعبتُ، كي أرتاح من صراعهما، قُدْتهما معا نحو الموت.

- أعرف هذا الإحساس، تبكيت الذات، تلك القسوة التي نمارسها على أنفسنا، تلك السياط التي نلذع بها أجسادنا... لكن هذا لا يبرر هروبكِ من حيواتكِ. أنتِ تذكرين ذلك الشاعر المعتوه فرناندو بِسُوا، بُحتِ لي في إحدى جلسات العلاج، أنه أثر فيك شعريا، كان أكثر شجاعة منك، ذاك الرجل تَلَبَّس عدة شخصيات وأتقنها، عاش حيواتها كلها، رغم اختلافاتها العميقة. حَمَلَ أنداده على كاهله في صمت. من يمكنه تحمل شخصية كألفارو دوكامبوس، شخصية عدمية ومنحطة ساقته إلى التخلي حتى عن الخطيبة الوحيدة في حياته.

عارضته:

-لم تكن الشخصيات هي التي سكنت جسده، إنما هو من كان موزعا على أنداده، يغادر جسده ويسكن في الآخرين. لم يكونوا تكملة حياة، بل كانوا هم مجتمعين بِيسُوا نفسه. ثم هو من خلقها ولم تُفرض عليه. هذا هو الفرق، ولهذا صدقه القراء.

-لا تنخدعي، حتى الأشياء التي نفعلها عن طواعية، تُفرض علينا، بشكل أو بآخر. كان بيسُوا شاعرا حذقا ومقنعا. رغم أنني لم أعرفه في لغته، جاءني عابرا لغة أخرى، وفي الكثير من الأحيان لغتين.

- قلتَ لي مرة، إن السكن الدائم في ذواتنا، يخدم الشاعر ولكنه يدمر الروائي.

- لم يكن سوى تحريض جنس ضد آخر. هل عرفتِ بيسُوا روائيا؟ قد يعثر يوما، على مخطوطات في مكان ما، وسيعرف العالم أن ذلك الرجل الضئيل، له أنداد روائيون كذلك. لم أعرف كاتبا أكثر مكرا وتحايلا منه.

- ولمَ لا تكون لي، أنت كذلك، بكل هذا الغموض الذي يحيط بك، ندا، بديلا روائيا؟

- لا يمكن، حياتي لا تُشْبِهُكِ.

- لكن حياتينا تقاطعتا في الكثير من المصادفات. في الحلم كما في الواقع. ثم إنني اعتمدت عليك

كثيرا، ليس في تفسير الحياة، طبعا، وإنما في تماسكها.

- ونصحتكِ، كذلك، أن تفترضي مسبقا بداهة الحياة، قبل أن تدخلي معركة ما، و...

كما لو أن حبل اتصال قُطع بيننا، حدق الرجل فيَّ بدهشة واستغراب، فتح فمه مصعوقا. وانطمر تدريجيا في الأرض.

فطنت حينها، أنني سهوت، وخاطبته بلغتي الأصلية، التي استعدتها على الفور.

- إنه كان يخدعكِ.

صاح صوتٌ آتٍ من بعيد، صدى نابع من بين شقوق الأرض.

شاب ثلاثيني، نظيف المظهر، حليق الرأس، لحية سوداء مسترسلة، يضع كحلا في عينيه، ينظف أسنانه بعود أراك. يرتدي جلابية بيضاء طويلة وفضفاضة، مستلقٍ في استرخاء كامل، يسند رأسه على شاهدة قبر. نبرة الثقة، في صوته، لا تخفي أن قلبه من زجاج.

تشجعتُ وحدقت فيه، على جبينه كانت ندبة هلالية الشكل:

- ولماذا تكون أنتَ الحقيقة؟

سألْتُهُ.

- لأنني الميت الحقيقي، لم أخطُ على أديم الأرض منذ قرن. خذي الحقيقة من أفواه الموتى. الموتى لا يكذبون.

- لا أصدقكَ، لا أفهمكَ، كيف لي أن أفقه كلامك، أفك طلاسم الحياة، إذا كان زمني أنا كذلك قد مات.

- تَتَبَّعْتُ حديثكما، منذ دخلتِ المقبرة، لم أشأ أن أتدخل بين شخصين، يصفيان حسابات عالقة من العالم الآخر. غير أنني تذكرت: «من رأى منكم منكرا فليغيره بكذا، فإن لم يستطع فبكذا...».

- لم تكن بيننا حسابات، حتى أنني لا أعرف إن كنتُ قد عَرَفْتُهُ يوما.

- هل لي أن أشرح لك؟ جلس القرفصاء في مواجهتي. لقد كنتِ بين عالمين، الحياة والموت، ولم يكن البيت سوى ذلك النفق بينهما.

- أَيُّ نَفَقٍ؟

- الذي كان سيؤدي بكِ حتما إلى الموت. خوان، وأنا كذلك عرفته بهذا الاسم، رغم أنه ليس اسمه، كان أقدم الهائمين بين العالمين، لهذا اختاروه حارسا للنفق. لم تتعدَّ مهمته، مهمة تحرٍّ حاذق، اعتمادا على مهنته كطبيب سابق للأمراض العقلية والنفسية. اختبرَ مدى استعدادكِ للحياة

ومدى تقبلكِ للموت. من حسن حظكِ، أن أنزيمات الحياة كانت أقوى من أنزيمات الموت. ولأنه كان طبيبكِ في حياة أخرى، تعاطف معكِ، وأعادكِ إلى عالمكِ. المسكين، عيبه أنه لا يلتزم الحياد في مهمته؛ لذلك أعادوه للنفق، ولا أظن أنه سيغادره في يوم ما.

- والبيت؟ والعلية؟ والكلبة؟ وامرأة الرسالة؟

- هذا ما أجهد لأُفْهِمَكِ إياه. خوان، لم يسكن يوما ذلك البيت، أُمِر فقط أن يسكن حلمكِ، وأنتِ في الطريق إلى هناك. تركَكِ تعتقدين أنكِ تراقبينه من فوق، من العلية، بينما هو من كان يراقبكِ من تحت، من العالم السفلي.

- لكنني لم أَمُتْ، لم يكن لي في يوم من الأيام، سبب مقنع لأموت.

- حسب تشخيصي، لم يكن الوهم قاتلكِ،كما حاول هو إقناعكِ، قلبكِ هو الذي تَعَوَّدَ خموله عمرا، لم يحتمل خريفا ضاجّا، فَشَرِقَ بجرعة كبيرة من الحياة.

- وأنت من تكون؟ لم تُعرِّفني بنفسكَ.

- أنا، هُوَ.

قبل أن تنفجر جمجمتي، هرولتُ مسرعة لأغادر الحلم / المقبرة. حتى ولو كان هذا حلما، فلابد له من منطق يحكمه.

تخطيت القبور صفا صفا؛ لأجدني في ممر لأشجار الكستناء، خافت الضوء. خلف كل شجرة تقف امرأة شبه عارية. تعرض مفاتنها للعابرين. بتوجس اقتربتُ من إحداهن، سألتها عن مسلك لأقرب شارع رئيسي يؤدي إلى وسط المدينة. بمودة غريبة رمت ما تبقى من السيجارة، تناولتْ غصنا جافا، انحنت على التراب لترسم لي خريطة العودة. وضعتْ خطا طويلا وقالت:

- انظري، نحن الآن في شارع بيغالْ، عليكِ أن تمشي طوله كاملا، ثم انحرفي شمالا. بعد أول جادة، لُفِّي يمينا، ستجدين أمامكِ محطة ميترو، اختاري الاتجاه الذي تقصدين. عَلَّقْتُ:

- لكنني لست في باريس. أنا في.... تلعثمتُ. دُوارٌ في رأسي. لم أعد أذكر. في أي مدينة أنا؟

بسخرية مشفقة قالت:

- لا أظن أن امرأة في وضعكِ، تُدرك حتى الزمن الذي تنتمي إليه.

هزتْ كتفيها وسارت نحو زبون توقف بسيارة حمراء...]

وقع أقدام خفيفة تقترب في الممر. يدخل الطبيب العجوز الثخين. تتبعه امرأتان. تعرفتهما بصعوبة، الممرضة إرمين، تتبعها الطبيبة المتدربة.

مازلتُ مستلقية على نفس الوضع منذ عشرة أيام. فحصني الطبيب دون تعليق. جسَّ نبضي. تنحى جانبا، ودخل في حديث مع الطبيبة المتمرنة. يقدم شروحات، ويجيب عن تساؤلات.

انحنت عليَّ إرمين، همستْ في أذني:

- في الليل وأنا أتفقدكِ، رأيت طيفا جاثيا قرب سريرك، يتلو صلوات بلغة غريبة، ويجهش بالبكاء بدمع لا لون له، لم تكوني نائمة ولا مستيقظة، كنتِ تبتسمين باطمئنان. لم أخبر الطبيب المداوم.... كأنك تعرفينه، هل تعرفينه؟

- نعم، إنه الموت، جاء ليطمئنني على موت بدون ألم.

كما لو أنه انتبه أخيرا إلى أن الجسد الممدد أمامه، هو موضوع النقاش، تقدم نحوي الطبيب الآلي، ربَّتَ كتفي بيد باردة:

- حسنا، قال، ستغادرين اليوم.

نقلت بصري بينه وبين الأسلاك المتشابكة حول جسدي، التي تربطني إلى آلة جانبية، وأخرى فوق رأسي. بدهشة تساءلتُ:

- إلى البيت؟

ابتسم الطبيب:

- ليس بعد أيتها المرأة الشجاعة. ستغادرين فقط العناية المركزة.

كان قد مضى عليَّ عشرة أيام، حين غادرت عنبر الموت. حرَّروني من الأسلاك التي كانت تربط جسدي، ونقلوني إلى غرفة انفرادية.

تتالى أطباء من جميع الاختصاصات على غرفتي البيضاء، طبيب القلب، طبيب الجهاز الهضمي، طبيب الجهاز التنفسي، طبيب مختص في الطب الداخلي، لأول مرة أسمع بهذا التخصص. أخضعوا جسدي كله لفحوصات الأشعة، سحبوا غير قليل من دمي وبعثوه لمختبرات في البلد وخارجه.

اختلفت تشخيصاتهم، لكنهم اتفقوا على ثلاث نقط: اسم الحالة المرضية والذي لم أسمع به من قبل. أصل المرض غير واضح. لا أحد استطاع أن يعرف له سببا مباشرا. كل عناصر المرض، كانت نائمة في الجينات، منذ الولادة، تنتظر فقط سببا يوقظها. اتفقوا كذلك على أن السفر الطويل هو النقطة التي أفاضت الكأس. مع احتمال ضئيل لتورط حبوب منع الحمل.

كان أول سؤال يطرحه عليَّ الأطباء:

هل سافرت جوا، مسافة طويلة؟ متى؟ وكيف؟

أعلنت المضيفة أن الطائرة المتوجهة إلى سانتياغو ستتأخر أربعين دقيقة. لم أتأفف كباقي المسافرين. تابعتُ مراقبة الطفلة أمامي، وهي تحاول غير يائسة تركيب لعبة البُوزْلْ. كانت في حوالي السابعة من العمر، ترافقها امرأة في العقد السادس، يبدو أنها جدتها. مستغرقة كليا في اللعبة، تحاول إعادة تشكيل صورة ل. «السَّانْدْريلاَّ» بطلة قصة الأطفال المشهورة. تأملتُ إصرار الطفلة، كلما اختلطت الجزيئات أعادت تركيبها بصبر. تُخطئ مرارا. تفصيل صغير من صورة البطلة، ينقصها دائما. مضت أكثر من ساعة وهي على هذه الحالة، وكأس الحليب بالشوكلاطة ينتظر.

قطعة لم توضع في مكانها المضبوط فاختلت الصورة. السَّانْدْريلاَّ تكاد تكون مكتملة، فقط قطعتان تبادلتا مكانهما، التي تخص الرأس وضعت جهة القلب والتي من المفروض أن تكون مكان القلب، وضعت في الرأس.

وشْوَشْتُ لي: المعادلة صعبة حتى في الواقع...

كان المشهد موحيا.

أنا الساندريلا المزيفة، وقعتُ في شَرَكٍ نَصَبَتْهُ لي الحياة، بعيدا عن كل منطق. أن أحيا حياة مفككة، كقطع البُوزْلْ، وعليَّ أن أرصها انطلاقا من شظايا حياة أخرى، تَخُصُّ شخصا آخر، أدور في فلكه. مرجعية ضبابية، شخصية متصدعة، مستسلمة تماما لقدرية عمياء.

[... تحت مطر خفيف، أتسكع بين أزقة قديمة، وسط مدينة بون الألمانية، تأخذني قدماي إلى ساحة واسعة، أظنها ساحة البريد. على إحدى الواجهات صورة نصفية لي وأنا أبتسم، تكاد تكون بحجم الجدار الذي عُلِّقت فوقه. لم تكن رسما بالألوان ولا التقطت بآلة تصوير، بل شُكلت من مربعات لعبة البُوزْلْ. حجمها الكبير أذهلني. يقف أمامها العابرون لحظة، يتأملونها قبل أن يواصلوا طريقهم. وقفتُ أمامها بافتخار؛ لأنبههم أنني صاحبة الصورة الكبيرة. فجأة، بدأت الصورة تتفكك وتتهاوى القطع على الأرض. حاولت الصراخ والاستنجاد بالمتفرجين، لكن صوتي ظل عالقا في الحنجرة. لم يلتفت أحد لوجودي ولا للشبه بيني وبين الصورة. وكلما تساقطت القطع ازداد بكائي وانهياري. كانت القطع تسقط على الإسفلت المبلل محدثة صوت ارتطام أجسام ثقيلة. تفرق الجمع، وبقيت وحيدة، أجمع القطع في حضني، وأطمئن نفسي بأنها مجرد قطع بُوزْلْ من الممكن إعادة تشكيلها...]

أفقت، كانت وجنتاي مبللتين، وكأس الحليب بالشوكلاطة مسكوبا على المقعد المقابل. انتفضتُ، كانت عملية الإركاب قد أشرفت على نهايتها. كنت آخر مسافرة ألتحق بالطائرة. الرحلة التي كانت مبرمجة في الساعة السابعة مساءً، لم تنطلق إلا في الثامنة والنصف.

أخذت مقعدي قرب النافذة، بجواري جلس رجل دين مسيحي، يبدو ذلك من لباسه، ومن صليب عاجي يتدلى على صدره، وإنجيل بحجم الكف في يده، يتمتم بأدعية ويرسم علامة الصليب بين الفينة والأخرى. حين فسح لي الطريق لأَمُر، هالتني ضخامة جسده. قامة طويلة وجسد ممتلئ، أشعرني بضآلة جسدي.

بدأت الطائرة بالارتفاع، أحسست برجفة جسده الذي فاض عن مقعده إلى مقعدي. عندما عادت الإنارة إلى الطائرة، أصبح وجهه محتقنا كتفاحة داكنة. التفتَ اتجاهي، اعتذر محاولا بلا جدوى ترك مسافة بين جسدينا، واستدراجي إلى حديث ربما يخفف من روعه. غير أنني كنت قد

ابتلعت منوما، وهيأت نفسي لنومة طويلة.. أفضل أن أقطع المحيط الأطلسي وأنا نائمة، المسافة طويلة، إحدى عشرة ساعة، والسفر ليلا.

من خلال شقٍّ بين مقعدين، التقطتُ وجها خلاسيا لشابة مغمضة العينين. وجه مضيء، مؤطر بشعر أسود ناعم وغزير. وعينان أخريان ذابلتان، تتأملان المشهد خلسة بحسرة عاجزة.

كتداعٍ منطقي لهذا المشهد، استرجعت حكاية غارسيا ماركيز «طائرة الجميلة النائمة». تحكي ليلة كاملة قضاها قرب أجمل امرأة رأتها عيناه، على متن طائرة متجة من باريس إلى نيويورك. يتنفس نفسها، يحلم أحلامها، يمارس كل هلوسات المحبين دون أن يلمسها أو يبادلها الكلام.

لم تكن الحكاية بعيدة جدا عن رواية «بيت الجميلات النائمات» للكاتب الياباني ياسوناري كاواباتا. يحكي عن بيت من بيوت الدعارة، يلجأ إليه الشيوخ الأغنياء لمتعة التأمل والنظر فقط؛ لأن قانون البيت يقضي بأن يناموا في سرير واحد قرب صبيات جميلات دون لمسهن.

الأكيد أن ماركيز كان مفتونا بالرواية، إلى درجة محاكاتها في روايته «ذكرى عاهراتي الحزينات». رجل يهدي لنفسه في عيد ميلاده التسعين، ليلة حب، في إحدى الدور المغلقة في البلدة. إلا أن الفتاة الحسناء التي شاركته السرير ظلت نائمة طوال الليل، فقد خُدِّرت باتفاق مسبق مع صاحبة الماخور. وهكذا أخذت العادة من العجوز؛ ليكرر ليلته عدة مرات.

سرحت في عوالم الروايتين. سمحت لنفسي بتأويل تقاطعاتهما، مستندة للؤم الأنثى فيَّ، ولمشهد الرجل العجوز الذي يلتهم وجه الخلاسية النائمة أمامي الآن. وخلصت إلى أن المرحلة العمرية لماركيز، كانت وراء التقاطه للفكرة النواة في «بيت الجميلات النائمات»، مفادها، أنه من الممكن التغلب على ذاك الإحباط المر بعجز الشيخوخة. وأن الاستمتاع بالجمال ليس له عمر محدد.

مغمضة العينين، أنا كذلك، حاولت أن أتذكر أسماء شخصيات الروايتين، دون جدوى..... ربما تذكرتُ ذلك في الحلم.

عند نزولي مطار سانتياغو. كانت رجلاي منتفختين، وعروقي نافرة إلى درجة لم أستطع معها ارتداء حذائي. حسب ادعاء الأطباء، كانت تلك الرحلة الطويلة إنذارا، لم أدركه في حينه، بأن اختلالا خطيرا أصاب ميكانيزمات الجسد.

الأعراض نفسها، تكررت في طريق العودة إلى مدريد.

المتعة الوحيدة في الحياة أصبحت سببا غير مباشر للموت.

هل لي أن أندم؟ أبدا.

حتى ولو لم يكن في بلد كالشيلي، غير قبر بابلو نيرودا وبيته على شاطئ الباسيفيك، فهذا يكفي لأن يكون محجا لمجنوني الأدب والإبداع. ثم إنه بلد روائيتي المفضلة إيزابيل ألليندي والشاعرة غابرييلا ميسترال. البلد حديقة شعرية وروائية متنوعة.

في هذه الفترة، اختفى رجل البيت من أحلامي. لم أعد أذكره إلا لِمامًا وأتساءل: في أي مكان من العالم هو الآن؟ في الأردن؟ في فرنسا؟ في المكسيك؟ في إسبانيا؟ في ألمانيا؟ هل ما يزال يحمل حقيبة الظهر ويتنقل بين المطارات هاربا من نفسه؟...

ربما هو في إحدى دور العجزة، كما تخيلت طيفه مرة وأنا أمر أمام دار العجزة أُوغيسْتِنْيوم بمدينة بون. أو في غرفة بمشفى، كما اعتقدته ذات إقامة في مستشفى سالبيترير بباريس. ربما نسي وضع كمامة الأوكسجين فاختنق، ومات مجهولا في أحد الفنادق.

ظلت تلك الأسئلة ثقوبا سوداء.

ثم بدأت أتخيل أناسا آخرين، يسكنون البيت، رجالا ونساءً وأطفالا، أجيال تأتي وأخرى ترحل. فما زال في البيت ما يكفي من الألم.

بعد شهور من التأمل، انتبهت إلى سؤال مهم، فاتني أن أطرحه: هل أنا من سكن البيت؟ أم هو الذي سكنني؟

في الأخير، لم يتبق لي، غير أن أؤمن بسلطة العشوائية، وبكل ما يترتب عليها من فوضى.

في المسرح البلدي لمدينة يَابيلْ الشيلية، مدينة البرتقال سابقا، وأنا أغادر المنصة بعد قراءات شعرية، تقدمت نحوي من بين الجمهور امرأة ثلاثينية بلون قمحي، وشعر أسود فاحم، عينين زرقاوين وأهداب سوداء طويلة. ملامح تشي بأصول عربية.

حَيَّتْني وأبدتْ إعجابها بقصيدة للأطفال كنت قد ألقيتها:

-لقد دمعت للروح الإنسانية العالية في قصائدكِ -قالتْ- مجيئي إلى هذا الحفل، كان بدافع التعرف عليكِ أنتِ بالذات. حسب ما قرأت في البرنامج، أنتِ شاعرة عربية. لكن الذي جذبني أكثر هو اسمك، أَيْشَة.

-عائشة، صححتُ لها.

- نعم، هو نفس اسم ابنتي.

أهدتني دمية سوداء من الثوب والقش. لساحرة معروفة في بلدتها، حيث يقام كل سنة مهرجان للساحرات.

كأن بيننا معرفة سابقة، أخذتني من ذراعي نحو المخرج، ثم استطردت:

- أصولي عربية. نحن من الجيل الثالث لفلسطينيي الشتات. نزح أهلي إلى الشيلي بعد النكبة. لا نفهم شيئا من اللغة العربية. لكننا حرصنا على الاحتفاظ بأسمائنا العربية الشخصية. أنا اسمي إيزاوْرَة.

- سبق والتقيت امرأة في كوستا ريكا تحمل نفس الاسم. الاسم عربي، شرحت لها، لكنه حُرِّفَ قليلا اتباعا لمخارج الحروف الإسبانية. الزهرة وعائشة من الأسماء المنتشرة في العالم العربي. عندنا في المغرب على الخصوص. وكذلك أسماء أخرى منها فاطمة، مع تحريف بسيط، بطبيعة الحال.

قاطعتني:

- هل لي أن أعرف معنى الاسمين؟

بسخاء أجبت:

- الزَّهْرَة، لها معنى جميل وهو نَوْرُ كل نبات، والجمع زَهْرٌ، الزُّهَرَة بفتح الهاء هو اسم كوكب معروف.

أما عائشة، فهي من العَيْش الذي هو الحياة. والعَائِشُ: ذو الحالة الحسنة. عائشة اسم أنثى، والشائع هو، امرأة محبة للحياة.

ثم استطردتُ ضاحكة:

- لكن، واجب الاحتياط، أن نحذر مقالب الأسماء. فليست كل امرأة تحمل هذا الاسم هي محبة للحياة.

أطلعتني على صورة ابنتها. كانت نسخة من الأم. طلبت كتابا لي بالعربية مع إهداء لصغيرتها باللغة العربية كذلك.

اعتذرت، لم أكن أحمل معي سوى الترجمة الإسبانية. من يتوقع أن يجد في مدينة، بعيدة، على الحدود الشيلية الأرجنتينية، أحدا يطلب كتابا باللغة العربية؟

فاجأتني:

- هل أجد لديك، بالمصادفة، كتابا لشاعرنا الفلسطيني محمود درويش.

- الآن، لا، مع الأسف. لكنني أملك آخر دواوينه «لا أريد لهذه القصيدة أن تنتهي» بالفندق، في مدينة كُوكِيمْبُو. إذا جئتِ إلى هناك، أهديه لكِ بكل سخاء. سأهديكِ الآن ترجمتي الإسبانية.

فتحتُ الكتاب على الصفحة الأولى. تهيأتُ لأكتب الإهداء:

- هل لي أن أعرف الاسم الكامل لابنتك؟

- عائشة رودريغو أميًّا.

اهتزَّ القلم بين أناملي. كان بهو المسرح ضاجا بالحضور. والأصوات تتقاطع. أخذتها جانبا وسألت:

-لم أسمع جيدا، هل قلتِ رودريغو أميًّا؟

أكدت بحركة من رأسها وهي تتأمل الحروف العربية بإعجاب.

ترددتُ قبل أن أسألها:

- أكيد أن أجدادكِ مروا عبر أوربا، إسبانيا أو فرنسا مثلا، قبل الوصول إلى الشيلي؟

بدون اهتمام كبير، أجابت:

- لا أدري، ربما.

استجمعت شجاعتي مرة أخرى وبإلحاح:

- هل لديكم هناك قريب، يحمل نفس الاسم. يعمل كطبيب للأمراض العقلية، اسمه خوان رودريغو أميًّا؟

بدا لي أن الحديث في هذا الاتجاه لا يعنيها.

قاطعةً الشك باليقين، نطقتْ:

- لا، لم أسمع بأقارب لنا في أوربا. في لبنان وسوريا والأردن، ممكن.

كطفلة منبهرة بأولى حروفها العربية، طلبتْ مني المرأة أن أقرأ لها الإهداء:

«إلى عائشة رودريغو أميًّا،

عسى أن تكون الحياة سخية بما يليق باسمك.

وأن تعود النبتة إلى جذورها

فتنتهي هذه المتاهة».

كنت أقصد المتاهتين. متاهة عائشة الفلسطينية، الشيلية، القادمة من ضفاف البحر المتوسط، عابرة المحيط الأطلسي، وصولا إلى المحيط الهادي، بحثا عن بيت. ومتاهتي أنا في بيت يسبح بين عالمين يقتسمانني بعنفٍ وتوازٍ غريبين.

منذ مصادفة مسرح مدينة يَابيلْ الشيلية، وأنا أنتظر، كل ليلة أن أعود إلى حلمي، البيت. رافضة تماما هاجسا داخليا، أن ما جاء من الفراغ لابد أن يعود إلى الفراغ.

أقسمت أنني في الحلم القادم، سأكون أكثر شجاعة. سأنزل الدرج إلى الطابق السفلي بلا تردد، سأواجه الرجل دون وجل، لأحكي له حقيقته. سأعكس وجهه في مرآة زمني. سألومه على المتاهة التي أسكنني فيها عمرا. وبشجاعة أكبر، سأسأله عن من أكون -أنا- ساكنة العلية.

ليس من العدل أن أموت وبي حسرة السؤال: رجل ساكنته بيتا واحدا ولم أعرفه؟

أشفقتُ عليَّ، قد بدأت في تسلق أدراج السماء، ورجلاي لم تطآ الأرض قط.

وقفت بباب الحياة مرارا ولم أستطع الدخول؛ لأن جثة مجهولة وضعت بيني وبين الحياة.

لكن يبدو أننا - معشر النساء - حين نكتسب شجاعة السؤال، نكون قد هرمنا، وتجاوزنا زمن الأحلام(********).

(*) مَن قال إن الأحلام بدون رائحة؟

عندما أخطو داخل الحلم /البيت، تغمرني دائما تلك الرائحة القوية، مزيج من رائحة الكحول واليود وأدوية أجهل اسمها. حتى وأنا أخط هذه السطور، تسبح الذاكرة في تلك الرائحة البعيدة. رائحة المستشفيات.

رائحة مألوفة لديَّ، أميزها بين عشرات الروائح، رائحة أمي، عند عودتها من عملها كممرضة في مستشفى البلدة.

وأنا صغيرة كنت أحتج على غياب أمي باكية، أتشبث بها حتى لا تتركني ثانية، أدس وجهي بين تلابيبها، فتصعد الرائحة إلى أنفي. أصاب بخدر وطمأنينة، وإحساس بأن العالم دافئ ومضيء وآمن.

(**) أنا جدة الساردة، لست جدتها البيولوجية،كنت عاقرا فاخترت لزوجي زوجة ثانية ولودًا. كلما وضعت هي مولودا تبنيْتُهُ.

أنا البنت البكر لأحد قواد الشاوية. تربيت في كنف العز والغنى والسلطة. ولدت سنة 1898 ميلادية. تاريخ تؤكده ذاكرتي الطفولية. في سن العاشرة، كنت ألعب رفقة أقراني، نشُدُّ أيدي بعضنا بعضًا ونلف في شكل دائري، مرددين أغنية لا يفهمها إلا الكبار «يا القمْرَة ضَوِّي، ضوي، وْدِيري جاَرَة، مولاي عبد الحْفيظْ بَاعْ المغرب للنَّصارى». هو تاريخ عقد الحماية الفرنسية على المغرب.

عايشتُ خمسة ملوك. مت وقد تجاوزت مئة سنة.

(***) ما روته عني نساء العائلة من قدرات غيبية، فيه الكثير من المبالغة. كنت الأذكى بين أولاد القائد، الذين تجاوز عددهم أربعين فردا. أغلبهم أبناء إماء. أمي كانت من بين أربع زوجات حرات رسميات. أخذتُ علوم الدين عن فقهاء توالوا على «زاوية» القصبة. تعلمت التطبيب بالأعشاب والحجامة والكي بالنار، على يد بعض العبيد والإماء، المستقدَمين من مختلف البقاع، خصوصا من وسط أفريقيا.

قصة أنني كنت أتمنطق بحية، مكيدة من نساء العائلة. الحزام كان هدية من الشيخة «عايْشة بنت لوقيد»، أهدتني إياه في آخر زيارة لها إلى القصبة، قبل أن تعتزل؛ لأنني الوحيدة من بين «عْيَالْ» القائد، التي كنتُ أستضيفها= =في قبتي، وأُكنُّ لها الاحترام. نساء العائلة كن ينظرن إليها كامرأة ساقطة وغاوية للرجال. أما أنا فكنت أحفظ قصائدها وأعتبرها من الأصوات النادرة في فن غناء «العَيْطَة».

أحد معجبيها صنع لها حزاما مخصوصا من جلد حية، للزينة ليس إلا.

(****) كانت الحياة دائما تَتَقَصَّدُني بعشوائية، وبلا سبب. فدخلت معها في عناد. للإنصاف، قلبي هو الذي سئم منها، فأصبح يضخ دما ثقيلا. يموت لحظات، يهرب، يتسكع في دهاليز الموت ثم يعود. نكاية ورسالة للحياة، بأنها ليست كل شيء في الوجود، ولا يمكنها أن تتحكم في مصائر البشر، فهناك شيء أقوى منها، الموت. هذا ما يبرر الإحساس بالانتشاء والدفء والطمأنينة، ومقاومة الصعقات الكهربائية والإنعاشات، رافضة العودة. لكن حين تُكِنُّ لك الحياة ضغينة ما، فهي لا تدعك ترحل، تحتفظ بك لتذيقك عذابا أطول.

(*****) أنا خوان روديغو أميّا، في الحقيقة نحن أربعة، وربما أكثر، تناوبنا على حمل اسم رجل مات منذ قرن. ليس هناك ما يثبت أنه اسمه الحقيقي، غير شاهدة قبر مجاور لمثوى الموسيقار

روبير شومان. وسط المقبرة القديمة لمدينة بون الألمانية. وزعنا عمر الرجل فيما بيننا، دون اتفاق مسبق. كل واحد منا أخذ جزءا من حياته، وعاشه على مقاسه. لكل منا –نحن الأربعة- مبرر للتمويه. لكن واجب الاحتياط ألا تَثق في تعريفات شخصيات مزيفة.

لنفترض أنني خوان رقم 1، انتحلت الاسم، هربا من وكالة المخابرات الأمريكية CIA. يشاع أنني كنت عميلا مزدوجا، خلال الحرب الباردة. ولدت في منطقة لقبايل الجزائرية، حيث عمل والدي «بوسْطَجِي» في الجيش الفرنسي.غداة الاستقلال، التحقت العائلة بفرنسا وأنا في سن العاشرة. اشتغلت في عدة مستشفيات، انخرطت في جمعية أطباء بلا حدود، هكذا تنقلت بين دول وقارات. تقلدتُ مهام عديدة. في ظروف غامضة، هربت زوجتي وقُتل أولادي الثلاثة.

انتهيت في مستشفى للأمراض العقلية، جنوب إسبانيا.

الاسم الحقيقي مجهول.

(******) أنا خوان رودريغو أميًّا رقم 2، انتحلت الاسم، هربا من ملاحقة الغيستابو. ولدت في منطقة بَادِنْ بَادِنْ الألمانية. عملت طبيبا في برلين. اختفيتُ بداية الحرب العالمية الثانية، ليظهر بعد عشرين سنة، رجل يدَّعي أنه ابني. حلَّ في نفس العيادة، بنفس التخصص، وسكن نفس البيت. الممرضة المتقاعدة التي اشتغلت معي، شككت في الأمر. هو نسخة مطابقة لي، وهذا شيء بدهي، لكن المستغرب أن يحمل نفس الندبة، بنفس الحجم، في نفس الموضع على الجبين.

الاسم الحقيقي مجهول.

(*******) أنا خوان رودريغو أميًّا رقم 3، انتحلت هذا الاسم، هربا من الحكم الشيوعي. ولدت في مدينة بودابيست، من أسرة إقطاعية هنغارية. اختفيت في بلدة نائية حتى ثورة 1956، استغللت فتح الحدود المؤقت، وتسللت خارج البلاد، ترافقني عشيقتي اليهودية. قضيت زمنا في فرنسا. تابعت الهرب على متن سيارة تجر وراءها كَرَفَانْ، حتى وصلت الجزيرة الخضراء. قطعت البحر، سرت أياما، ولم أتوقف إلا عند بلدة صغيرة،= =وسط المغرب. هناك زاولت مهنتي كطبيب لسنوات. حين فكرت في العودة، كنت قد أضعت كل الأوراق التي تثبت هنغاريتي، وتحمل اسمي الثاني، فِيدا دِي بُورُوش. لأن اسم العائلة الحقيقي كان اسما تركيا، غيرته العائلة لتخفي أصولها التركية.

متُّ على الحدود، بين النمسا ووطني، توفيتُ وأنا أحمل تهمة خيانتين: الخيانة العظمى للوطن، والخيانة الزوجية. فقد تركت خلفي زوجة وأولادا حين هربت.

الاسم الحقيقي مجهول.

(********) عليَّ أن أعترف أن علاقتي بالعالم الخارجي، لم تكن سوية تماما، توتر دائم، عشت في دواخلي أكثر مما عشت الخارج. عشت الحلم أكثر مما عشت الواقع، فأخطأت الحقيقة. علقت أخطائي على مشجب الحياة، فَكِلْتُ لها كل النعوت السيئة. ابتعدت عن كل إشراقة فيها. افتقدت لحدس ما، فلم أستوعب دروسها. =

= ما يحدث الآن هو حتما مقلب من مقالب الحياة الكثيرة، لكنه الأخطر والأصعب؛ لأنه يحدث وأنا على حافة الخريف.

(********) أنا والد الساردة، وجدت أنه ليس من اللياقة أن تُخفي عن القراء موروثها الجيني، الجنون لم يعد مرضا معيبا في زمننا، بل درجة قصوى للخلق والإبداع. أُقر أنني في سنواتي الأخيرة أصبت بلوثة جنون. لم يكن جنونا كاملا، بل ارتفاعا في درجة التوهم والتخيل. كنت قارئا نهما. ومحبا للبحث وللمعرفة. البعض كان يرى أنني مجنون وآخرون كانوا يرونني عالما جُنَّ بعلمه. الحقيقة أنني بقدرة ما، اخترقت الحجب، وسبقتُ زمني.

(********) محمد شكري، كاتب مغربي معروف بجرأتي وكشف المستور. عرفتُ الساردة في أيامي الأخيرة، أقصد اقتربت منها. فأنا كنت صديقا للعائلة لسنوات. في إحدى زيارات الساردة لي في المستشفى، حيث كنت أعالج من السرطان، كان الزمن شهر رمضان. طلبتُ منها مساعدتي على الجلوس، حين اقتربتْ، سألتها: هل أنت صائمة؟ أجابت: طبعا.حينها وبخجل رجوتها: «أريد مصحفا صغير الحجم». في الزيارة التالية، جاءتني بالمصحف، فخبأته تحت الوسادة. حين أعدت لها المصحف، كنت قد نسيت بين صفحاته ورقة خططتها بيدي المرتجفة الخائفة من الموت: «فكُنتُ كأنني لم أكُنْ، فأُقادُ من الرَّحم إلى القبر. لكنْ ليتَ الله يتكلمُ معي، يفتحُ شفتيه، ويُعلن لي أنَّ محصيات الحكمة مضاعفة الأجر، فأعلم أن الله سيُغَرِّمُني بأقل من إثمي».

ربما، وحدها الساردة تعلم أنني متُّ عن إيمان.

(********) أنا الشاعر محمود درويش، ليس عليَّ أن أقدم نفسي، الكل يعرف أنني جوازُ سفر

وحقيبة، عشتُ أتنقل من بلد لآخر، بحثا عن مكان يليق بموتي.

صديق للعائلة. صادفت الساردة ذات عبور في مطار عمان، حين اصطدمت حقيبتانا. كنت قادما من باريس، وكانت هي في انتظار طائرتها المتجهة إلى بيروت. استغربتُ، فلأول مرة ألتقي هذه السيدة من دون رفيقها. تشاركنا فنجان قهوة وقطعة كيك، وصرنا أصدقاء. نشاكس بعضنا كلما التقينا.

(********) كانت أمي امرأة غريبة بالنسبة لساكنة المدينة. عُينت نهاية الخمسينيات ممرضة في مستشفى البلدة؛ ليكون قدرها أن تلتقي بوالدي. فكا لعزلتها، كانت تلجأ كل يوم جمعة إلى المقبرة، تجلس عند قبر والدتها التي جاءت بها من فاس؛ لتموت بين ذراعيها بعد سنة من المرض. تقرأ الفاتحة، ثم تدخل في حديث طويل مع الجدة: تحكي لها كل أحداث الأسبوع، تشكو لها شجونها وأحزانها وغربتها، بل في الكثير من الأحيان تسألها عن حل لمشكلة تؤرقها، ثم تجهش ببكاء طويل. أصبحت المقبرة بالنسبة لي فضاءً ثالثا بعد البيت والمدرسة. فضاءً للعب، وتعلم الحروف الأبجدية على شواهد القبور، أتسلى بقراءة أسماء الموتى وتواريخ وفاتهم. أزيل الأشواك والطفيليات وأشذب الزهور وأسقي ما ذبل من نبات، تماما كما كانت تفعل والدتي بقبر الجدة... هكذا تكونت ألفة غريبة بيني وبين المقابر. كلما دخلت مدينة سألت عن مقبرتها. زرت الكثير من المقابر لدول وأجناس وديانات مختلفة.

(********) أنا خوان رودريغو أميّاً رقم أربعة. انتحلتُ هذا الاسم، هربا من نفسي التي هي الشر والفجيعة. لا أحد يعرف حقيقتي حتى أنا، ولا حيواتي الكثيرة. عَرَفْتُني بأسماء عديدة، كلما لبستُ اسما، نسيت الآخر وحياته. أُرجح فقط أن اسمي الحقيقي هو خوان دْيُوسْ مْوِيرْتي (الذي يعني الموت بالإسبانية). لكنني في العمق أرتاح إلى اسمي الأخير خوان رودريغو أميًّا. الأكيد أن الساردة استندت على حياة هذا الاسم بالذات لتكتب حكايتها.. هروبي من صفحة إلى أخرى، كجثة في رواية بوليسية، ليس حرصا على سِرِّيَّتي وعليَّ، بل خوفا من أن يكون هذا المحكي، رأس الخيط الذي سيجر باقي الحزمة. النبش في حياتي هو نبش في حيوات آلاف الأشخاص. ولن أبالغ إذا قلت إنه نبش في حياة البشرية. =

= الحقيقة في كل هذا؟ أنني ولدت في غيتو وأرقد الآن في مقبرة مونبارناس، قلب باريس. عنواني: رقم 20- القسم الرابع، عند المدخل الجنوبي للمقبرة.

الاسم الحقيقي مجهول.

(********) «أناس يذهبون، وأناس يبقون. وهناك من لا يذهبون ومن لا يبقون. ربما لم يجيئوا أبدا. إنه سر هؤلاء كلهم، يكون معهم أينما كانوا، وأينما لا يكونون، لأن لا شيء وجد قبلهم أو بعدهم» (قولة لكاتب مجهول).

(********) ارتأيت أن النهاية في هذا المحكي هشة وغير مقنعة، فتكفلت بذلك نيابة عن الساردة؛ لأن شخصية خوان تشبه إلى حد ما شخصية بيدرو سالبادورْس، في كتابي «مديح الظل»، اكتفيت فقط بتبديل الاسم: «ككل الأمور، يبدو لنا مصير خوان رودريغو أميّا، رمزا لشيء نحن على وشك أن ندركه».

خورخي لويس بورخيس.

بيت الليل

«وقال لي: بيتكَ هو طريقُكَ،

بيتُكَ هو قبرُكَ، بيتكَ هو حشرُكَ..»

النِّفري، المواقف

صدر للكاتبة

مساءات: منشورات دار الثقافة، الدار البيضاء (المغرب2001).

أرق الملائكة: منشورات دار عكاظ، الرباط (المغرب2002).

شرفة مطفأة: منشورات دار الثقافة، الدار البيضاء (المغرب2004).

ليلة سريعة العطب: منشورات دار النهضة، بيروت (لبنان2007).

الطبعة الثانية: منشورات مرايا، طنجة (المغرب2009).

حديث مدفأة: حقيبة فنية بالاشتراك مع الفنان عبد الله الحريري، تور (فرنسا2012).

صديقي الخريف: حقيبة فنية بالاشتراك مع الفنان محمد بناني عن دار مرسم، الرباط (المغرب2009).

خَلْوَةُ الطير: منشورات دار ورد للنشر، دمشق (سوريا2010).

درس في الرسم: قصائد للفتيان، رسومات الفنانة الإيطالية أليسيا برافو، منشورات دار مرسم، الرباط (المغرب2013).

قنديل الشاعر: مختارات شعرية، ترجمها إلى التركية متين فندقجي، دار ديغراف للنشر، إسطنبول (تركيا2006).

عزلة الرمل: مختارات شعرية ترجمها إلى الإسبانية عبد اللطيف زنان، منشورات «ألفار»، إشبيلية (إسبانيا2006).

أرق الملا ئكة: مختارات شعرية ترجمها إلى الفرنسية عبد اللطيف اللعبي، منشورات مرسم بدعم من مصلحة العمل الثقافي بسفارة فرنسا، الرباط (المغرب2007).

أفرد جناحي: مختارات شعرية ترجمها للإسبانية عبد اللطيف زنان، منشورات جامعة سان خوسي وبيت الشعر (كوستا ريكا2009).

نَدَبَةُ ضوء: مختارات شعرية بالإسبانية عن مؤسسة محمد السادس لحوار الحضارات، سانتياغو (الشيلي2010)

حنين المطر: مختارات شعرية بالتركية، ترجمة متين فندقجي، منشورات آرشوب، إسطنبول (تركيا2010).

تَوَهُّجُ الليلك: مختارات شعرية ترجمها للإيطالية الرداد الشراطي عن دار النشر الخيراسولي ضمن سلسلة «إيفيستو» سيسيليا (إيطاليا2012).

حدس الذئبة: مختارات شعرية بالفرنسية، منشورات دار لارماتن. ترجمة عبد اللطيف اللعبي والعربي حرز الله، باريس (فرنسا2013).

السخرية في شعر محمود درويش: دراسة نقدية.